طقوس الإثم

مُنذر عبد الحر

الكتاب : طُقُوس الإثم (رواية)
المؤلف : مُنذِر عبد الحُر
الطبعة الأولى : القاهرة ٢٠١٢
رقم الإيداع : ٢٠١٢/١٤٩٦٠
الترقيم الدولي : I.S.B.N: 978 - 977 - 493 - 110 - 9

الناشر
شمس للنشر والإعلام
٨٠٥٣ ش ٤٤ الهضبة الوسطى- المقطم- القاهرة
ت/فاكس: ٠٠٢٠٢٢٧٢٧٠٠٠٤(+٢) / ٠١٢٨٨٨٩٠٠٦٥(+٢)
www.shams-group.net

تصميم الغلاف : إسلام الشماع

حقوق الطبع والنشر محفوظة
لا يسمح بطبع أو نسخ أو تصوير أو تسجيل
أي جزء من هذا الكتاب بأي وسيلة كانت
إلا بعد الحصول على موافقة كتابية من الناشر

شمس
للنشر والإعلام

رواية

طقوس الإثم

(من وقائع أيَّام المحنة في بغداد)

مُنْذِر عبد الحُرّ

جميع الأسماء والشخصيات التي وردت في هذه الرواية،

هي من نسج خيال المؤلف، ولا وجود لها على أرض الواقع.

كُنَّا نعيش بسطاء

مساطين

منذ فجر الزمان

كُنَّا إخوة جميعًا

وكُنَّا ناكل ثمارنا

ونشرب ينابيعنا

ونستنشق هواء أريافنا

كُنَّا ننشد ونرقص

في ضياء القمر

كُنَّا نعيش بسطاء

مساطين

وذات يوم

نزلت إلى شواطئنا

أسماك القرش

وانتهى السلام

والأناشيد

والرقصات

لقد انقضُّوا على أكواخنا

كالصقور

لم يكتفوا بالمحيطات والأجواء

كان لابد أن يستولوا

على أراضينا

لماذا ؟

لماذا يا ربِّي ؟

كانوا يملكون البندقيت

ويملكون الكحول

ويملكون قبل كلِّ شيء ؛

الكذب والكراهيت

لم تكفهم أراضينا

فانتزعوا أشقاءنا

وشقيقاتنا

وأبناءنا

إلى قارَّاتٍ أخرى.

الشاعر الأفريقي

أونيسيمو سيلفرا

(١)

انسابت خيوط الفجر خجولة بين مسامات المدينة التي تمطّت وهي تصحو نافضة صراع ليل مخيف زرع فيها الوحشة والترقب.. حتى بدا الفجر مترددًا وهو يفتح أجنحة البيوت وأبوابها، لتطلّ الوجوه المتعبة، وهي تتقصّى أمر ما تركه ضجيج الليلة الماضية.

بدا كلٌّ وجهٍ وهو يبحث عن دافع ومُشجِّع له للخروج من إطار الحذر الذي رسمته أصواتُ الليل في الذاكرة.. وكان صوت الأذان قد اختفى منذ صلاة العشاء الأخيرة..

مَنْ يجرؤ الآن على سحب الشمس من ضفائرها لتفضح ما تناثر على الأرض من ألوان لم يعرف عنها سُكَّان المدينة شيئًا ؟

انفرجت أفواه الجميع دهشة حين أطلّ معتوه المدينة "جابر" من الزقاق الضيّق المطلّ على المزرعة المتروكة ذات أشجار اليوكالبتوس المعمّرة المتشابكة، وهو يلوِّح بقميصٍ عسكريٍّ ممزقٍ عليه بقعٌ من الدماء، وكان "جابر" يصرخ بصوتٍ عالٍ تارةً يشير إلى ضحك فزع، وتارة أخرى إلى لوعة وبكاء.. وإزاء جري "جابر" وصوته غير المفهوم انتشر خبر كالنار في الهشيم، لا يُعرف مصدره الحقيقي، مفاد الخبر أن سيارة

عسكرية من نوع "إيفا" مُحمَّلة بالسلاح والعتاد قد تحطَّمت إثر قصف جويّ على المزرعة المتروكة، ومات في السيارة ضابط شاب مع عدد من جنوده.

كانت "رواء" تراقب ضجيج الناس عبر السياج الواطئ لبيتهم من خلال حديقة المنزل بعد أن جمعت قطع الملابس المنشورة على حبل الغسيل المربوط بين نخلتين من نخيل المنزل الست اللائي زرعهن أبوها عند نزوحه من الجنوب وسكنه في بغداد في أوائل الخمسينيات إثر مشكلة عشائرية اضطرته إلى أن يغيب عن أنظار الناس في قريته الجنوبية ويختار التشرد من مدينة إلى مدينة أخرى، حتى استطاع أخيرًا أن يتطوَّع في الجيش برتبة جندي أوَّل ثم تدرَّج برتبته حتى صار نائب ضابط، وحصل على البيت الذي يسكنونه الآن، ثم تزوَّج أخت صديق في الجيش، لتنجب له ابنيه وابنته، ثم أحيل على التقاعد بعد أن تعب جسده وأنهك قلبه وأصيب بمرضٍ عضالٍ تُوفي على إثره في الثمانينات من القرن العشرين.

لم تشغل "رواء" نفسها بضجيج الناس كثيرًا، وآثرت الانزواء، ثم العودة إلى المطبخ لإعداد الفطور لأمِّها وأخويها، التعب والشحوب المشيران إلى السهر والإجهاد يطبعان آثارهما على وجهها الحنطيّ المدوّر، وقد بدت أكبر من سنوات عمرها بسبب ملامح الجد وتحمُّل المسؤولية البيتية بعد وفاة والدها مباشرة.

أخواها "حسام" و"عامر" غير مباليين، وقد فشلا في الدراسة، فاتجه "عامر" إلى أعمال تأسيس الكهرباء وتصليح بعض الأجهزة المنزلية، فيما عمل "حسام" سائق سيَّارة أجرة، وفي كلِّ مدة يعمل أجيرًا لدى أحد مالكي السيَّارات.

ورغم قضاء "رواء" معظم وقتها في أشغال المنزل، إلا أن لها أحلامًا كبيرةً لا يدري أحدٌ كيف ومتى تُفتح النوافذ لها، وهي وإن تركت الدراسة منذ عدة سنوات، إلا أنها تتمتع بذكاء حاد استطاعت به التفوق على جميع زميلاتها في الصف السادس العلمي وحصلت على معدَّل جيد في الامتحان الوزاري أهَّلها للقبول في كلية الهندسة ـ جامعة الموصل، إلا أن أهلها رفضوا رحيلها للدراسة بعيدًا عن أنظارهم والسكن في قسم داخلي في مدينة الموصل، ثم أنهم قالوا لها، ماذا تفعلين بالشهادة، والمرأة عندنا مصيرها البيت أولاً وأخيرًا، هكذا قال أخواها حين قررا كسر ظهر مصيرها الدراسيّ، وبالتالي قمع أحلامها في الاستمرار في التفوق العلمي وربما الوصول في النهاية إلى الطموحات التي تحلم بها أيَّة فتاة بعمرها وفي مثل ظروفها.

وما زالت "رواء" تسرق بعض الوقت لتُطالع الكتب والمجلات العلمية والأدبية التي تحصل عليها، وربما فكَّرت في بعض الأحيان في كتابة الخواطر والأفكار المختلفة التي تراودها، أو التي تودُّ التعبير عنها، ولكن بسرِّية تامة.

كان والدها الراحل يتعاطف معها كثيرًا، ولو كان على قيد الحياة، وشهد معدلها الدراسي المشرِّف لأصرَّ على مواصلة دراستها لأنه واثق منها ومن جديتها في تحقيق آماله، وآمالها.

المهم أنها ما زالت تتذكّر ثنايا حلمها الأجمل، الذي مرَّ سريعًا، وذوى بقسوة، يوم خفق قلبها للمرَّة الأولى في حياتها، حين لاحظت بأن أحد طلاب المدرسة الإعدادية المجاورة لمدرستها يلاحقها يوميًا بنظراته المعبِّرة، ثم بمرور الوقت أخذ يسير خلفها بمسافة قريبة حتى وصولها إلى بوابة مدرستها.. في الأيَّام الأولى ادَّعت "رواء" بأنها غير منتبهة إليه، بينما كانت تسترق النظر إلى اهتمامه بها بحذر وخجل وسرِّيَّة، ثم بتكرار ملاحقته لها، أخذت تفتعل أية حركة مع أية زميلة من زميلاتها لتنظر باتجاهه، وكم تمنَّت آنذاك أن تلتفت إليه قبل دخولها بوابة مدرستها... حتى جاء يوم اختفى فيه عنها، مما اضطر "رواء" للبحث عنه بعينيها بقلق واضح، وهي تتساءل مع نفسها بأسىً: أين هو يا ترى، هل يئس مني، أم أصابه مكروهٌ لا سمح الله؟ والكثير من الأسئلة الأخرى لعبت برأس "رواء" البريء، وجعلتها حزينة مكتئبة في ذلك اليوم.

حتى جاء اليوم التالي، ليُفاجئها الشخص الذي بحثت عنه، وهو يظهر حاملاً وردة حمراء، فما كان من "رواء" إلا أن عبَّرت عن ارتياحها وفرحها بابتسامة عفوية رائعة دالة على صدق

مشاعرها تجاهه، فابتسم لها فتاها، وهو يلوِّح بالوردة فرحًا، ثم تبعها إلى مدرستها، ولم تجد عناءً نفسيًا كبيرًا حين التفتت إليه قبل اجتيازها بوابة المدرسة وابتسمت له ابتسامة محببة صادقة نابعة من أعماق قلبها المرهف.

وتطوَّرت العلاقة بين "رواء" و"ماهر" بعد أن كتب ماهر رسالة مرتبكة سلَّمها إلى "رواء" على عجلٍ لتفضَّها بيدٍ مرتجفةٍ وتقرأ اعترافه الذي رفعها على جناح السعادة الشديدة..

(تحياتي...
أنا أحبِّك يا رواء منذ أن رأيتك أوَّل مرَّة
وقد تعذّبتُ ومازلتُ أتعذّب في حبي الصادق لك
أشعر الآن أنك تبادلينني هذا الإحساس
وأطير فرحًا لذلك
أنا مستعد لأيّ شيء تطلبينه مني
مستعد للموت من أجلك
لأنك بهجتي في الحياة
ونافذة أملي التي أطل منها على العالم...

ماهر)

(٢)

جلس "رشيد" تحت مظلّة باص المصلحة في ساحة الميدان التي تقع بين الباب المُعظّم وسوق الشورجة، وساحة الميدان مكتظة دائمًا بخليط من البشر الذين تجمعهم ملامح العوز والفاقة والإهمال والتشرّد، في حقيقة الأمر لا يدري "رشيد" ماذا ينتظر، فالباص لن يمرَّ هذا اليوم، وما كان على "رشيد" أصلاً أن يغامر بالذهاب إلى دوامه اليومي في دائرته، لأنه بسبب ذلك كاد أن يخسر حياته، لذلك ظلَّ صامتًا وهو يتأمل ضجيج يومٍ حُفِر في ذاكرته بعمقٍ وأسىً شديد وألمٍ قاتل، إنه يوم الثلاثاء المصادف الثامن من نيسان \ أبريل ٢٠٠٣، هذا اليوم الذي صحا فيه "رشيد" مع عائلته على هلع لا مثيل له، كان ذلك إثر دخول المعتوه "جابر" إلى زقاقهم قادمًا من المزرعة الكبيرة وهو يلوِّح بقميصٍ عسكريٍّ مدمي، وما تبع نذير الشؤم هذا من انفجارات شديدة بالقرب من بيتهم، مما أدَّى إلى اختباء جميع من في البيت تحت سلّم الكونكريت وهم يشاهدون بريبة من نافذة المطبخ المطلة على السلّم، ومن خلال جدارهم الخارجي الواطئ؛ أعمدة الدخان القريبة التي نتجت عن احتراق عدد من المنازل، ولفرط انفعال "رشيد" وشدَّة فضوله لمعرفة حقيقة ما جرى، خرج مع عدد من رجال زقاقهم الذين

ظلّوا في البدء يترقبون خلف أبوابهم؛ إلى الشارع العام، ليشاهدوا حشودًا من سكان منطقتهم، وهي تتجمع حول المنازل التي تهدَّمت أو التي احترقت بسبب القصف الشديد، أو بسبب القنابل العنقودية التي تقيَّأتها الطائرات الأميركية، وما زالت سيَّارات الإسعاف وسيارات الإطفاء تنطلق من موقع الحدث أو تعود إليه في فوضى محزنة وجلبة غريبة، وهذه السيارات الحكومية هي الشيء الوحيد المتبقي من مظاهر السلطة في الشارع.

أخذ "رشيد" أفراد عائلته إلى هيكل بيت حديث البناء لم يكتمل بعد، وقد تركه أهله وهربوا إلى بساتين "ديالى" القريبة من بغداد، وهذا الهيكل القويّ الذي اختاره "رشيد" لاختباء عائلته هو أكثر أهليّة ـ كما يعتقد ـ للاحتماء به كملجأ، فيما تواصل الطائرات حمّاها وعويلها وهي تقصف عشوائيًا، ليخلّف هذا القصف ضحايا من الكثير من الأبرياء.

وصارت الشوارع والأزقة في عموم بغداد عبارة عن حقول ألغامٍ واسعة مكشوفة.

ومع ذلك كلُّه أصرَّ "رشيد" في هذا اليوم المجنون على الذهاب إلى سوق المدينة مع ابن عمِّه غالب "خبير الألغام والمتفجرات" والذي كان يحمل رتبة مقدّم في الجيش العراقي، وقد عاد من وحدته العسكرية بعد أن فقد الأمل في مجابهة الكارثة القادمة، إذ فقد كلَّ خيوط الاتصال مع القيادة.

ومن سوق المدينة المضطرب الصاخب، اتخذ "رشيد" قرارًا مفاجئًا، وهو أن يذهب في هذا اليوم العجيب إلى دائرته !.

"رشيد"، ذو الثلاثة والأربعين عامًا، صاحب الجسم الممتلئ والوجه الحنطي الهادئ والعينين الصغيرتين والرأس الذي تسلل إليه الشيب مبكرًا فأظهره أسنَّ من عمره، كان عنيدًا في الكثير من الحالات، وإذا أصرَّ على أمر، لا يردعه عنه أيُّ شيء، لذلك ذهب من السوق إلى دائرته مشيًا على قدميه قاطعًا مسافة ملتهبة تُقدَّر بخمسة كيلومترات مليئة بإشارات الحرب وفوضاها حيث السيارات المحترقة والجثث المتناثرة والأشلاء المبعثرة والهلع الكبير الذي يجتاح كلَّ شيء.

وجد "رشيد" دائرته القريبة من الباب المعظَّم، والتي شغلت موقعًا بديلاً عن موقعها الأصلي القريب من المواقع الرئاسيَّة الخطرة؛ مغلقة الأبواب، فدار حول بنايتها تحت تأثير إحساس غامض غريب هو أن هناك - حتمًا - بابًا آخر للدخول إليها، ولم يجد طبعًا ما يشير إلى صدق إحساسه هذا، كما لم يعثر على أثر أو دليل لأحد غيره قد فكَّر في المجيء إلى الدائرة هذا اليوم المرتبك بكل تفاصيله.. وبعد دقائق صمت وحيرة ووخزة من ندم، عاد "رشيد" مشيًا على قدميه أيضًا ليجلس في مظلة باص المصلحة في الميدان ليراقب ما يحدث من فوضى.

ركض حشدٌ من الناس باتجاه المقاهي والأبنية القديمة الغارقة في ركام المزابل الأزلية، وظلَّ "رشيد" يراقب الطائرات بكلِّ أسى وحزن، حدَّ أن ذرف دموعًا كسرت جدار صمته، وهو يشاهد عددًا من الهلعين وقد سقطوا تحت رشقة جوية حاقدة من إحدى الطائرات المارّة بسرعة وجنون؛ متأثرين بجراحهم على مقربة منه، ولم يستطع إسعاف أحد منهم، بل أحسَّ بأنه حتمًا سيكون ضمن مفردات الهدف العشوائي القادم من إحدى الطائرات التي ملأت أجواء بغداد بطيشها واستهتارها وقتلها الأبرياء، ولم يستطع "رشيد" إلا الانتظار حتى تهدأ الأجواء؛ هدوءًا كاذبًا طبعًا؛ فالحرب هذه المرة لن تنتهي بسرعة وسهولة.. كانت تكفيه كسرة من هدوء يعود بها إلى المنزل، ولن يغادره ثانية مهما حصل، هكذا قرَّر "رشيد"، وتمنى لو يعود الزمن قليلاً، كي يبقى مع ابن عمه غالب الذي نصحه؛ مستنبطًا مفردات نصيحته من خبرته العسكرية؛ أن يعود إلى البيت ويتجنب المغامرة، لكن "رشيد" أصرَّ على رأيه، وزار سكون دائرته، وها هو في حومة الأحداث حائرًا مترقبًا باحثًا عن فرصة للخلاص، وجدها بأعجوبة، وعاد متخمًا بالقلق والخوف، ليستمع إلى سيلٍ من الأخبار والإشاعات والحكايات العجيبة الغريبة التي أطلقتها وتطلقها أفواه الحرب الزاعقة.

"ضُرب حيُّ المنصور - وهو أحد الأحياء الراقية في بغداد - ضربة جوية قاسية، وراح ضحية هذه الضربة عدد كبير من

الأبرياء، أما ما أشيع عن سبب هذه الضربة التي تركت حفرة واسعة عميقة في الشارع الرئيسي، هو أن القيادة العراقية كانت مجتمعة في "مطعم الساعة" الشهير، وتبين في ما بعد أن أيًا من أفراد القيادة لم يُصب بأذى. ثم أردف الخبر / الإشاعة، بخبر إشاعة آخر، هو أن رئيس المخابرات العراقية، هو الذي وشى باجتماع القيادة في هذا المكان"...

" وقصف فندق "فلسطين ميريديان" الذي أصبح أثناء الحرب مقرًّا للإعلاميين، بعد أن أحرقت وزارة الإعلام في حي الصالحية القريب من القصر الجمهوري، وقُتل في الفندق مراسلا محطتين فضائيتين مع أحد المصورين، وعددٌ من الصحفيين الأجانب مع أحد عُمَّال الخدمة في الفندق".

وسرت أخبار مفادها أن الجيش الأميركي دخل بغداد واحتل القصر الجمهوري والجسرين القريبين منه، وهما الجسر الجمهوري وجسر السنك.

وتشابكت الأخبار المنسوجة من إشاعات وحقائق مضطربة المعلومات.

أما "رشيد" فجلس في البيت مترقبًا منصتا، تجمعه مع أبناء جلدته الحيرة وأكداس التساؤلات حول ما سيحدث لاحقًا، ثم خرج إلى المزرعة الكبيرة التي تقع خلف منطقته السكنية مع حشود الناس الرائحة والغادية والمهمهمة حول ما حدث بشكل

مفاجئ وسريع، وكان الكثير من الناس قد هرع بجنون وشراهة لسرقة المعدات والأسلحة والأعتدة المتروكة في آليات قوات "الحرس الجمهوري" حيث تجمعت قوّة منهم قبل يوم واحد في هذا المكان.

وقبل غروب شمس هذا اليوم الممطوط جاء "غالب" وقال إن أحد أشقائه قد أُصيب إصابة بليغة بإحدى القنابل العنقودية، ونُقل على أثرها للمستشفى وهو الآن في حالة حرجة. بعدها خلد الجميع للصمت لينشب الظلام أنيابه في جسد المدينة وليحل السكون الملغوم المخيف.

قضى "رشيد" ليله بالسهر والحمى وتفاقم الحزن، حيث ما تزال صور النهار عالقة في ذهنه، وكانت الدقائق التي يتسلل فيها النوم إلى جفنيه، تحمل معها كوابيس تفزعه فيفزّ من نومه هلعًا مستذكرًا ليالي الجبهات المظلمة أيام خدمته في الجيش إبان حرب الثمانينات، عاد إلى الموت الذي كان يتجول بينهم هو وأصدقاؤه، تلك الأيام من الحرب الطاحنة التي ياما نسي فيها شهورًا دون أن يطل على الحياة الطبيعية من كوّة أو نافذة أو هاجس يدلّ على روح الحياة، فكان "رشيد" في تلك الأوقات العصيبة من إنسانيته يستحضر ذاته قسرًا عن طريق مطالعة الكتب والصحف والمجلاّت الملوّنة المتنوعة التي تحمل صورًا لفنانات فاتنات يتذكر من خلال سحرهن جمال العالم الذي يمشي

على قدمين من حلم خارج مبيتاتهم وملاجئهم وثكناتهم وصور معاناتهم، حتى تهيمن الصور على ذهنه، فينام تحت أنين الملجأ حالمًا بأهله؛ وأمه بالذات؛ وهي تنثر الأدعية المتواصلة من أجل حفظه وسلامته.

تذكَّر "رشيد" الساعات العجيبة التي كانت تسبق كلَّ هجومٍ أو تعرّض، وقارن بينها وبين الساعات التي تسبق الحرب الآن، والتي لا أثر فيها لجيش يواجه جنون ما يحدث، فالمعادلة كما هو واضح غير متوازنة، وتنتمي أحداثها إلى اللامعقول، والدليل على ذلك أن أقوى وحدات الجيش العراقي قد فرَّت هربًا، وهي تنصت إلى هدير أساطيل الطائرات والدبابات والآليات المعادية الغازية، التي لا يمكن أن تُواجَه مواجهة طبيعية تقليدية من أية قوة في المنطقة !.

(٣)

لم تستطع "رواء" التعبير عمَّا شاهدت، وقد هرعت إلى أمها العليلة التي استقبلت هلعها وحاولت بغريزة الأم الحنون أن تُهدئ من روعها، وقد جعلت الصدمة والفزع "رواء" مرتبكة تتحدَّث بعبارات غير مفهومة، وهي تبكي، وترتعش وهي تحاول توضيح هول ما رأت. تربعت "نسيمة" أمها على الأرض، ووضعت رأس ابنتها "رواء" في حضنها، وبدأت تتمتم بآيات قرآنية وهي تمسح بيدها الرقيقة على رأس ابنتها المرتجف، حتى نامت وهي تهذي بكلماتٍ لا تدلُّ على معنى..

عرفت "أم رواء" فيما بعد أن ابنتها؛ مثل غيرها من بنات المحلة اللائي يرمين القمامة خلف الدور السكنية في مكان مهمل مجاور للمزرعة الكبيرة؛ قد شاهدت جثة لرجل، وكانت الجثة مقطَّعة إلى أشلاء تثير الرعب والهلع.

شاهدت "رواء" كفًّا مقطوعة ورأسًا مثقوبًا وصدرًا مطعونًا وبطنًا مبقورة وقدمين بحذاءيهما مرميين في القمامة، وقد صدمتها مفاجأة المشهد، فيما سرى الخبر سريعًا بين سُكَّان المحلة، وجاء أهل الخير من ذوي القلوب القوية وجمعوا الأشلاء في كيس قمامة أسود كبير، ثم دفنوها قرب المزرعة،

ووضعوا عليها لافتة معدنية صغيرة كُتب عليها بخط متعجل مرتبك: "هنا قبر لرجل مجهول الهوية قُتل في بغداد يوم الثامن من نيسان عام ٢٠٠٣".

الطائرات تحوم وتلقي بقذائفها على المواقع المرصودة، وعلى الدور السكنية والسيارات المنطلقة بهلع في شوارع المدينة، وقد أصبح منظر السيارات المحترقة مألوفًا لا يقف المشاهد عنده طويلاً.

رقدت "رواء" ساعاتٍ تخلَّصت فيها من الصخب الذي أحاط كلَّ شيء، دهمتها كوابيس؛ فنهضت فزعة أكثر من مرة، ولكن أمها المسنة العليلة كانت قريبة منها طيلة رقادها تُهدئ روعها وهي تضع الكمَّادات على جبينها، وتواصل قراءة الآيات القرآنية بصوت منخفض، لتطرد الحمى والشياطين والشرور التي قد تهيمن على ذهنها بعد مشاهدتها المنظر البشع للقتيل المقطَّع الأوصال، و"رواء" الحزينة قد تنسى الكثير من التفاصيل المزعجة، لكنها لن تنسى العينين المفتوحتين للجثة وهما تلقيان شكوى مريرة، استنتجت "رواء" منها الكثير من العبارات، خزَّنتها في ذاكرتها، وهي تنعزل مع أمها عن الليل دامس الظلام؛ ذلك الكائن العجيب المليء الآن بالانفجارات وصرخات الاستغاثة والرعب. لقد تغيَّر كل شيء في العالم، بل تغيَّر العالم ذاته، بشكل فوريّ، وستصحو "رواء" لترى الأشياء مقلوبة!.

في الصباح لاحظت "رواء" على جميع أفراد أسرتها المؤلفة من أمها وأخويها؛ الإرهاق والخوف والحزن والأسى، قبَّلتها أمها "نسيمة" على جبينها، وقالت لها بفرح مجهد: لقد ولّت الحمى وهربت الشرور يا ابنتي، سأجلب لكِ قدحًا من حليب "الجاموس" الذي بقي عندنا شيء منه. ثم تحركت بتثاقل وجلبت قدح الحليب غير الممتلئ، تناولته "رواء" وارتشفت قليلاً منه، ثم حملت نفسها وذهبت إلى الحمام، استحمت وخرجت لأخويها وأمها أكثر نشاطًا وحيوية، وبدت ـ رغم الشحوب الذي يجتاح ملامحها ـ بأنها معافاة وقد تجاوزت صدمة الأزمة المفاجئة التي تعرضت إليها.

وقبل أيّ حديث مستقر بينها وبين أفراد أسرتها، ارتفعت أصوات في الباب وضجيجٌ عالٍ، خرج على أثرها أخوها "عامر" مستفهمًا، ثم عاد سريعًا وهو يصيح: لقد سقط النظام! تبسَّمت "رواء" ابتسامة استهزاء فاترة وهي تسمع عبارة "سقط النظام"، لتستعيد أشياءً كثيرة، قالت مع نفسها: "سقط النظام لتنهض الفوضى".

وانزوت حزينة؛ لا على سقوط النظام، فهي قد عانت من ممارساته الويلات؛ لكنها تذكرت "ماهر" حبيبها، نعم، لقد حضر أمامها بكل أناقته وفتوته وسحر ابتسامته وثقته العالية بنفسه.. تذكرت حديثه الأول معها :

• أرى الدنيا كلَّها مُلخَّصة فيكِ يا رواء..

– .....

• لذلك، لا أستطيع احتمال حياتي بدونك...

– .....

• أنا من عائلة محافظة ذات دخلٍ متواضع، لكنني طموح، وأستطيع أن ألبِّي كلَّ طلباتك...

– .....

• بعد أن أنهي الدراسة الإعدادية، سأدخل الكلية العسكرية وأتخرّج فيها ضابطًا في الجيش لأحصل على راتب جيد وسيَّارة وقطعة أرض سكنيّة، وسأكون حينها مؤهلا للاقتران بكِ.

– ونار الحرب؟

• الحرب لن تنتهي يا حبيبتي، لقد تعوَّدنا على أجوائها وطقوسها.

– أخاف عليك من لهيبها.

• هل حقًا تخافين عليَّ؟، يسعدني ذلك يا حبيبتي رواء.

– لماذا لا تكمل دراستك في مجال آخر؟

• لا أستطيع، لأن الدراسة مكلفة، وأنا أريدُ الفوز بكِ بأسرع وقت.

تطوَّع "ماهر"، حيث أنهى الدورة المختصرة في الكلية العسكرية، ثم تقدم لخطبة "رواء"، واتفق مع أمها وأخويها على أن يتزوجها في إجازته الأولى ، يومها فرحت أمه فرحًا مبالغًا فيه انتهى بدموع بللت بها ثوب "رواء" وهي تحضنها.

وهكذا كان الجميع ينتظر عودة "ماهر" للاحتفال بزفافه، هو الراحل إلى قاطع "الشيب" على الحدود العراقية الإيرانية، والعائد جثة هامدة في صندوق خشبي لُفَّ عليه علم العراق، بكت رواء عليه بهستيريا يومها، ولعنت الحرب الطويلة المجنونة التي صارت لغزًا لا يُحل ولا ينتهي ولا نتيجة فيه، فيما سقطت أم "ماهر" مغميًا عليها لتُقل إلى المستشفى وتضيع أخبارها بالنسبة لـ"رواء" التي لم تفكِّر منذ ذلك اليوم بأيّ رجل آخر بديلاً عن "ماهر".

(٤)

لـ"جابر" ـ الذي اتفق جميع سكان المحلة على أنه مجنون ـ طباعٌ يتخيلها من لا يعرفه أو من لم يسمع به أنها لرجل حكيم أذلَّه الدهر فصار رثَّ الثياب حافي القدمين، منفوش الشعر، إنه تجاوز العشرين من عمره بسنة أو سنتين، يقول عنه كبار السن الذين يسكنون محلته، إنه لم يكن كذلك في طفولته وصباه، والدليل على ذلك فهو قد أنهى الدراسة الابتدائية والمتوسطة بلا مشاكل ولا علامات تدلُّ على أنه أبله أو مجنون!.

أبواه لم يكونا على ما يرام، فهما في خلاف دائم، حيث يعمل أبوه عتالاً في سوق "الشورجة" ويوفّر بالكاد قوت اليوم لعياله المتكونين من ولدين وبنت واحدة، أما أمُّ "جابر" فقد خضعت للكثير من الشبهات وكلام الناس حول سلوكها وخفّتها في التعامل مع رجال المحلّة، بلا حسابات لسوء الفهم أو لاستغلال تصرفها استغلالاً غير مقبول في مجتمع مثل مجتمع محلة مغلقة بقناعاتها وطبيعة علاقات الناس ببعضهم البعض، وكيف لا، و"أم جابر" تصغر أباه بعشرين عامًا، وتتمتع بجمال وصبا وقوام رشيق وبشرة بيضاء تُغري فيها جميع رجال المحلة، ومما زاد الطين بلّة، أنها؛ وبسبب ضعف الأحوال المعاشية لعائلتها؛ أخذت تعمل خادمة في بيوت الموسرين في المناطق

السكنية الراقية، لتوفر دخلاً إضافيًا يعين ربَّ الأسرة على همِّه في مسؤولية البيت ومصاريفه الثقيلة.

وتعددت الروايات في قضية جنون "جابر" وتغيُّر أحواله بشكل مفاجئ، وربما الأكثرها شيوعًا هي أنه صُدم حين شاهد أمّه في غرفة نومها داخل البيت وهي عارية تحت جثة رجل غريب ضخم قبيح الشكل يتأوه شراهة، فيما هي تتلوى تحته، فارتعش جسد "جابر" كلُّه وفقد صوابه فأخذ بالزعيق بصوتٍ عالٍ، خرجت على أثرها أمُّه إليه وهو في غرفة الاستقبال وهي تلفُّ جسدها بشرشف، بينما شعرها منفوش وعيناها فاترتان، سألته بصوت لا يخلو من الاحتجاج والتأنيب: ما بك يا جابر ؟

فازداد "جابر" صراخًا وخرج راكضًا إلى خارج المنزل، إلى المزرعة الكبيرة، ولم يبت في بيتهم تلك الليلة، وحين سأل أبوه عن غيابه أجابت أمُّه بكل برود : لقد شاهدتُهُ يُدخن، ووبَّختُه، فزعل وترك البيت.. ولا أدري أين هو الآن!.

• أليس هو ابنك، كيف لا تعرفين أين هو ؟

– وماذا أفعل له، هل أتركه يدخّن ؟

.....

بعد هذا الحادث، الذي شاع همسًا بين سكان المحلّة، شاهد الجيران "جابرًا" مع شلّة من الشباب المراهقين الذين يدخنون ويتعاطون الخمرة، ويعبثون بكلّ شيء، فيما عرف "جابر" فيما

بعد بأن لأمّه علاقاتٍ مشبوهة مع الكثير من الرجال الغرباء، ويبدو أن صراعه الدائم مع النفس وضعفه وعجزه عن مواجهة هذا الموضوع الشائك ، جعله في هذا الوضع النفسي المعقد.

وفي كلِّ الأحوال، تبقى هذه الحكاية، غير مؤكدة، أو ربَّما ليس بسببها حسب أصبح "جابر" على ما هو عليه الآن، فقد تحوَّل من فتى يتمتع بالحياء والفطنة والتفوّق الدراسيّ، إلى فتى وقح تاركًا دراسته، هائمًا على وجهه في الأزقة والشوارع بملابس قذرة ممزقة وقدمين حافيتين ورأس أشعث، وفي بعض الأحيان يُردِّد عباراتٍ كأنها حِكمٌ لا يفهم مناسبتها أحد، لكنه كان يكررها مدة من الزمن، ثم يتحوَّل إلى عبارات غيرها، وقد تعوّد الجميع منه ذلك.

أما "نوال" أم جابر، فالجميع يعلم بأنها سارت في طريق الهاوية، وارتكبت أخطاء متتالية، لذلك احتقرها رجال المحلة ونساؤها، وظلَّت هي بعيدة عن أنظارهم بدعوى العمل المضني في النهار ـ من أجل لقمة العيش ـ والركون إلى البيت في الليل، مع ولديها وابنتها وزوجها، وبقيت أسرارها في صندوق مقفل لا يعرف مفاتيحه إلا الله عزّ وجل، وهي، والذين تربطها بهم علاقات وثيقة خاصة.

كان "جابر" وبعد أن انطلق صارخًا حاملاً القميص العسكري الملطخ بالدم في بداية احتدام الأحداث، قد خلد للصمت طيلة فترة الفوضى على غير عادته، وحين رأى أجواق الناس متجهة لسرقة المخازن والدوائر الحكومية والمباني إثر سقوط النظام، أخذ يضحك بهستيريا، ثم صمت، وأطلق حسرة طويلة ليقول بأسى واضح، وحكمة مجنون نادرة ! : لا تفعلوا ذلك، لأنكم ستصبحون جميعكم مثلي !، وهي الجملة ـ الحكمة الجديدة ـ المفهومة هذه المرّة التي أخذ يُردِّدها على مسامع الجميع.
ولا أحد يعبأ بكلام مجنون على قارعة الطريق.

شاهد "جابر" "رشيدًا" فسأله: ماذا تقول في ما يفعله الناس، وأنت عاقل وليس مجنونًا مثلي؟
فأجابه "رشيد" بكلِّ جديّة وصدق واحترام: إنهم يقتلون أنفسهم بخيانة الضمير، أن هذه الأملاك والحاجيات ليست ملكًا للنظام، فهي مال الشعب كله، بل حتى النمل والذباب والحيوانات والحشرات التي تعيش في تراب البلد وسمائه ومائه لها حقٌّ فيها، لكنهم لا يفهمون، بل لا يريدون أن يفهموا. ولكن، تعال معي يا جابر. وأخذ "رشيد" "جابرًا" من يده ووقفا في طريق بعض الذاهبين للسرقة من المخازن القريبة، قال لهم "رشيد" بانفعال واضح : إن هذا فعل حرام، ثم إن أرض المخازن التي تسرقون منها مليئة بالقنابل العنقودية التي لم تنفجر بعد، ألا تخافون على أرواحكم؟

جُوبه "رشيد" ومعه "جابر" الحائر؛ بالصمت والسخرية والاستهجان، فترك "رشيد" "جابرًا" في الشارع وهو يعبر عن استنكاره لما يفعله العقلاء، وعاد إلى بيته حزينًا محبطًا، ثم صعد إلى غرفته في الطابق الثاني وأخذ يبكي بحرقة، ثم خلد إلى صمت طويل، فتذكّر تفاصيل كثيرة منها أيَّام دراسته، واحتدام المشاعر الوطنية التي كان يتحلَّى بها مع جميع المحيطين به، والأمر في كل الأحوال في حينها لم يكن فعلاً سياسيًا مباشرًا، بل هو شعور تلقائي صادق تجاه ما يؤمن به الجميع دون استثناء، وكان الولاء للوطن أولاً، وإن اختلفت أساليب وصور التعبير عن هذا الولاء، وأدرك "رشيد" بأن الخطورة الحقيقية الآن تكمن في ظاهرة خلط الأوراق، ذلك أن البلد يتعرّض لاحتلالٍ شرس، ولا يوجد مفهوم معادل لذلك الفعل الوحشي، أما النظام وسقوطه، أو إبداله بصيغة أخرى فأمر لا يتطلب صعوبة في تشخيصه وفهمه، وتجاوز أزمته.

(٥)

يتفق الجميع على أن "نوال ـ أم جابر" هي أجمل نساء المحلّة والمحلات المجاورة، لذلك فقد كانت فريسة لعيون الرجال ورغباتهم، ومثار غيرة وضغينة جميع النساء، لأنهن يخشين على رجالهن من عينيها الشيطانيتين وقوامها الرشيق وبشرتها البيضاء المشربة بالحمرة ولباقة لسانها الممزوجة بالغنج الأنثوي الصارخ. وهي منذ مجيئها إلى المحلة، قبل أكثر من ثلاثين سنة مع زوجها الذي يكبرها بعشرين عامًا، كانت ما تزال صبيّة في مقتبل عمرها الذي لم يتجاوز حينها السابعة عشرة، ومنذ اليوم الأول من حلولهم في المحلة، أصبحت معروفة لدى الجميع بخفة دمها وجمالها الصاخب ولسانها ذي اللهجة البغدادية المحببة الذي يمزح ويمرح مع الجميع، لذلك صارت عرضة للأقاويل والشائعات والحكايات المنسوجة عنها وعن زوجها؛ الذي يبدو على العكس منها في سلوكه مع الآخرين، فهو صموت، يبدو عليه الحزن والأسى الدائم، وعرف سُكَّان المحلة في ما بعد بأنه سكيّر مدمن وأنه جاء مع زوجته الشابة إلى المحلّة من محلة بغدادية تقع في أطراف بغداد، لسبب غامض ظل مثار أسئلة وتساؤلات وريبة وشكوك، حول هذه العائلة الغريبة التي قدمت إلى محلة عُرفت بتواضع مستوى أهلها المعاشي، وببساطة ناسها.

كانت "نوال " تتغنج في كل شيء، بل أنها تتفنن في سحر أنوثتها، فكان حضورها إلى سوق المحلة الصغير مبعث فرح وتملق يُدلق نحوها من جميع الباعة وروّاد السوق من الشباب ومن غير الشباب، حدَّ أن أصبح البعض منهم مثل المهرجين أمامها، يفتعلون النكات السمجة والحركات الغريبة المضحكة، كي يفوزوا بضحكة داعرة منها، أو يحصلوا على كلمة إعجاب؛ قد تكون مفتاحًا لصداقة متوخاة، وهي بينهم الصبيّة الجميلة المتزوجة من رجل لا يستحقها - بنظرهم -. وفي أحد الأيام أدَّى التنافس على جلب انتباهها؛ إلى شجار مخيف بين رجلين من باعة السوق، ووصل الشجار إلى الضرب بالأيدي، ثم بالعصي والسكاكين، تدخل فيه حشدٌ من الرجال، حتى فُضَّ النزاع عشائريًا، أما "نوال" فكانت بعيدة عن فخاخهم الساذجة، وتصوراتهم الشرهة، بريئة منها، حتى تعرَّفت على "محمود" الشاب الأنيق الهادئ المثقف، الذي يدرس الماجستير في "علوم الحياة" والذي لم يعبأ بها أبدًا، ولأن بيته مقابل بيتها، فقد صار مضطرًا لإلقاء التحية عليها كلما شاهدها بالمصادفة، وبمرور الأيام أصبحت تزيد على ردِّها على تحيته بسؤاله عن أوضاع دراسته وعن أهله، وأسئلة سريعة عابرة أخرى. بعد ذلك أخذت تسأله بخبث محبب عن زميلاته الفتيات اللائي يلتقي بهن في رحاب الجامعة، فيما كان "محمود" يجيب بحياء وكلمات مختصرة موجزة تتلعثم مفرداتها وتتكسر أحيانًا،

لاسيّما حين تكون "نوال" أمامه بثوبها اللماع المفتوح من الأعلى والأسفل، وهو يضيء كنوزها الصارخة التي هي مطمع جميع لصوص الهاجس الجنسي من الرجال. وقد باغتته مرة بسؤال وقح مراوغ صادم : ألا أعجبك أنا ؟.. مع ضحكة معجونة بأنين الغنج ومواء الرغبة، ليجيبها "محمود" بارتباك، فيما عيناه تسقطان على الأرض: بل تعجبينني !.

• إذن لماذا أنت خائف مني ؟

- أننننا !! من قال ذلك ؟

• سلوكك.. وترددك... وكأنَّك لا ترى شيئًا جميلاً فيَّ "وهي تعلم طبعًا أن سلوكه المرتبك مبعثه الحياء، وتردده سببه صرخة الإغراء التي تدوي في رأسه" .

- ماذا تريدينني أن أفعل ؟

• أريدك أن..... أن..... تعال معي إلى بيتي.. فهو فارغ.. فأنا أريد التحدّث معك عن أشياء كثيرة تشغل بالي !

- حسنًا.. سأسمع منكِ كلَّ شيء، ولكن في فرصة قادمة إن شاء الله، فأنا مشغول الآن.

وتركها "محمود" واقفة، متحدية إياه بوقاحة، ليذهب عنها بخطوات مرتبكة، وقد تكررت دعواتها إليه في الأيام القادمة، وتكرر رفضه واعتذاره المهذب منها، حتى أنها؛ ولغرض أن تغيظه وتثيره وتتحداه؛ دعت شخصًا آخر، من شباب المحلة وأمام عينيّ "محمود" ودخلت وإياه إلى بيتها.

حزن "محمود" حُزنًا شديدًا، وظل كاتمًا سرَّ تعلقه بها طويلاً، حتى أخذه الهزال، بعد أن صار يدخن كثيرًا ويطيل الصمت الحزين، ولا ينظر نحوها حين يراها، كان يعاقب نفسه من خلال تجاهلها، وكان يطيل عتاب الدهر الذي ابتلاه بحب فتاة لا تستحق الحب الحقيقي..

أما "نوال" فأوغلت بدهاء الخبيرة في إغاظة "محمود" وإثارة غضبه المكبوت وغيرته السجينة، فكرَّرت مصاحبة الشاب الآخر، وإدخاله منزلها، حتى سمعت ذات ظهيرة بعثور أبناء المحلة على جثة "محمود" غريقًا، بعد أن سرت أنباء عن غيابه عن منزله لمدة يومين لا أحد يعلم ماذا حلَّ فيه.

بكت "نوال" عليه بكاءً حقيقيًا حارقًا، وحزنت حُزنًا شديدًا، لأنها أدركت بأنه مات منتحرًا بسبب حبها اللئيم، ربما هي الوحيدة التي تعرف سبب انتحاره، الذي أثار استغراب أهله ومعارفه وسكان المحلة، الذين لاحظوا تغيُّر سلوكه في الأيام الأخيرة السابقة لانتحاره، كما لاحظوا شحوبه وشراهته في التدخين وشرود ذهنه، حد أنه ـ وهو المهذب العاقل، طالب الدراسات العليا، حين يمر على جمع منهم ينسى أحيانًا إلقاء التحية، لقد أدرك الجميع أن أمرًا مهمًا حدث في حياة "محمود" قلبها بشكل مفاجئ، وربما قد دفعه هذا الأمر إلى الانتحار.

ظلَّت ذكراه تعذبها رغم مرور أكثر من ثلاثين عامًا عليها، واختلف مزاجها من تلك الحادثة، إلا أنها ولفرط إحساسها باليأس والخيبة ظلت ماضية في طريق الخطيئة، رغم أنها أنجبت ولدين وبنتًا، فيما ظلَّ زوجها الساذج المسكين خارج إطار أيّ حدث يتعلق بها.

ومع كلِّ التقلبات، والأحزان والأخطاء، ظلَّت "نوال – أم جابر" حتى هذه الساعة أجمل نساء المحلة والمحلات السكنية المجاورة، وقد نبذها رجال المحلة ونساؤها بعد أن صارت حكايات أخطائها على كل لسان، ولا تُعد، ولا تُحصى!.

(٦)

في الأوقات المتوترة يكون الليل حيوانًا خرافيًا أسود، ينهض ببطء، ويكشر عن أنيابه اللماعة بوجوه سكان المحلة، ورغم الهدوء النسبي الذي حلَّ بالمحلة، إلا أن القنابل العنقودية التي ألقيت بجنون في الشوارع والأزقة، ما زالت تهدد مصائر السُّكان، فتتوارد أخبارٌ عن رجلٍ بُترت ساقه، وامرأة قُطعت يدها وأطفال ماتوا جميعًا وهم يتناولون جسمًا غريبًا به مسحة من جمال وطرافة، لينفجر بينهم ويحولهم إلى أشلاء تختلط فيما بينها، فيفرق أهلهم الأعضاء بهلع وجنون وبكاء لا يُعقل، بل هناك خبر مفاده أن عاشقين ماتا متعانقين وهما يبثان رسائل فرح اللقاء بينهما، فاختلطت دماؤهما، لينسجا باقات من ورد الدم والأشلاء المتناثرة... وأخبار كثيرة وحكايات تدخل في تصوّر اللا معقول عن جرحى وشهداء وغرائب وعجائب عن الذين سرقوا ونهبوا ودمّروا وأحرقوا، أو أولئك الذين تعففوا ورفضوا كل هذه الممارسات الدنيئة رغم فقرهم وعوزهم.

في هذا اليوم، قُتل جارٌ لرشيد، أسباب القتل غامضة، والقاتل مجهول، وكل الذي حدث أن هذا الجار، هو رجلٌ تجاوز الخمسين من عمره، جاء إلى المحلة قبل الحرب بأيام، يحمل أغراضًا قليلة ومعه امرأةٌ مسنة، وولدٌ أعمى، ليسكنوا في دار

صغيرة استأجروها من عائلة هاربة إلى مدينة أخرى، ثم وفي حومة الفوضى، وقفت سيارة بيضاء صغيرة في باب داره، وترجَّل منها شابٌ ملثمٌ، طرق الباب على جار رشيد، وما أن خرج الرجل، حتى ترجل شابان آخران بسرعة من السيارة، وأمطروا جسده بالرصاص، واردوه قتيلاً في الحال، ليجتمع على جثته حشدٌ من رجال وأطفال المحلة، بينهم رشيد، ولم يفهموا من المرأة المسنة اللاطمة الباكية عليه سوى أنه مات مظلومًا، وأنها ستذهب لإخوته وعشيرته لتبلغهم الأمر، واحتضنت الولد الأعمى وظلت تبكي، فيما تعاون رجال المحلة على لف الجثة ببطانية جلبوها من بيت رشيد، ثم حملوه إلى المستشفى، وسرعان ما اختفت المرأة المسنة مع الولد الأعمى، ولم ير أحدٌ من أبناء المحلة أي أثرٍ لهما.

وتتصاعد الأحداث، والناس تتصاعد وثائر قلقهم وحيرتهم وترقبهم، فيما فُوجئ الجميع بكمٍّ هائلٍ من الأحزاب والتجمعات التي تدَّعي أنها كانت مطارَدة ومظلومة ومكبوتة من قِبَل النظام السابق، وها هي تحتفل بخلاصها منه ونيل حرياتها، وظهرت شعارات جديدة وصورٌ ووجوهٌ لم يألفها الناس سابقًا، وكل هذه الوجوه والأحزاب احتلت مقرات المؤسسات والمنظمات الحزبية السابقة، ووضعت أسماء أحزابها أو جمعياتها أو أشخاصها على بوابات تلك المقرات.

أما السوق فقد شهد ارتفاعًا مفاجئًا في الأسعار، وبدأت مخاوف الناس تستشري من حدوث مجاعة أو أزمات قد لا يتوقعها الفرد العراقي، وقد لا يتخيلها أصلاً.

يتراكض الناس للحصول على النفط والغاز والبنزين، بسبب غياب التيار الكهربائي، مع إطلالة الحَرِّ المُبكرة الخانقة... والناس ينتابهم الخوف والقلق والاستفزاز وهم يشاهدون الجنود الأمريكان بدباباتهم وسياراتهم المصفحة، وهم مسلحون بأحدث أنواع الأسلحة والأعتدة والمعدات، وقد شبَّههم الناس بأبطال أفلام هوليود التي بدأت تغزو العيون بكثرة بعد أن تخلَّص الناس من أزمة منعهم من نصب أجهزة الستالايت التي انتشرت بشكل مفاجئ وسرعة غريبة بين الجميع، فبدأت الصحون تتسلق سطوح البنايات والدور السكنية، حتى صار منظرها غريبًا مدهشًا، لتندلق قنوات العالم من أقماره المتنوعة التي حُرم الشعب العراقي منها سنوات طويلة.

بدأ الناس يشاهدون من يتحدث عن همومهم وتوقعات مصائرهم وآلامهم، وكذلك من يتاجر أيضًا بتلك الهموم والآلام، وظهرت في الشارع عشرات الصحف الجديدة، وأدلقت مئات الأسماء الصحفية التي لا تجيد إلا الكذب والتزوير وابتزاز الناس بعرض موضوعات استفزازية وصور تثير فيهم مشاعر مختلفة.

سقطت أقنعة كثيرة، واندلعت أقنعة أخرى، وظل عموم الناس تائهين محتارين، لا يدرون من هو الصادق معهم، ومن هو الذي يكذب عليهم ويتلاعب بمشاعرهم.. الدوّامة يشتد سعيرها، بالصفقات المبكرة والوعود الهائمة والشعارات؛ التي صارت كالعواصف، فيما تعلو أصوات اللعن والسباب للنظام السابق، والغريب في الأمر أن بعض الأصوات اللاعنة كانت بالأمس القريب؛ تهلل وتمدح، وتهتف بحياة النظام الذي تلعنه الآن، فأية مفارقة هذه ؟!.

وفي المقهى الذي يرتاده رشيد، ظهرت وجوهٌ لا يعرفها، بينما تذكَّر بعضها الآخر؛ وهي لأشخاص غادروا البلاد منذ سنوات، ولم يعرف من أخبارهم شيئًا، ها هم يعودون. وأطلَّ عليه وجه يتذكر أنه شاهده أخر مرة قبل تسع سنوات..

• مرحًبا رشيد !

ـ أهلا وسهلا.

• ألا تعرفني ؟!

ـ لا أتذكر والله، لأنني متعب قليلاً، ولكن وجهك مألوفٌ لي.

• أنا فاضل.. فاضل كريم، ألا تتذكرني، كنا نجلس معًا هنا قبل تسع سنوات، قبل أن أسافر خارج بلادي التي أذَلتني، لقد حصلتُ على شهادة الدكتوراه في الاقتصاد !.

ـ أه.. تذكرتك يا فاضل، أهلاً بك، كيف عدت، ومتى...؟

... ثم نهض رشيد وتعانقا..

• عدتُ قبل أيام لأستقر هنا في بغداد بعد أن انهار النظام، وأفكّر بإصدار جريدة اقتصادية، ألا تساهم معي فيها؟

- لا.. لا أستطيع يا فاضل، فالأوراق ما زالت مختلطة عليَّ في سياق الوضع الجديد، وأنا لا آمن شيئًا الآن، معذرة منك، مع أمنياتي أن توفق في عملك.

• إذن لنكن على اتصال، أنا أسكن الآن في شقة في "الصالحية" تجد عنوانها في هذا الكارت..و

... أخرج فاضل كارتا من جيبه وسلمه لرشيد..

- شكرًا.. إلى اللقاء.

وخرج "رشيد" من المقهى أكثر حيرة، تجتاحه تساؤلات كبيرة، فهو يعرف أن فاضل الذي التقاه قبل قليل، لم يُنهِ الدراسة المتوسطة كما يتذكر، كما أنه محتالٌ كبير، وقد سمع عنه بأنه دخل السجن بسبب عملية تزوير، فأية شهادة دكتوراه حصل عليها، ومن أي جامعة، وكيف؟! بل أيّ مهزلة تلك الآتية إلى البلاد على بساط ريح سحري لتنزل به الخراب السريع؟!

وسمع "رشيد" عن النهب والتدمير والحرق الهائل الذي طال المتحف الوطني العراقي، وعن الآثار الثمينة التي سُرقت وهُرِّبت إلى خارج البلاد، كما شاهد آلاف الكتب المسروقة من بيت الحكمة وهي تُلقى على رصيف ساحة الميدان الصاخبة، أو

تُباع كأكوام بأبخس الأثمان، كما شاهد مكاتب الموظفين وعِددًا طبية وكراسي متنوعة والكثير من معدات الدوائر الحكومية وهي تُباع في سوق الحرامية..

شعر "رشيد" أن بلاده بيعت كلّها بالخردة الرخيصة، وأن نهر دجلة الذي يعبر الآن على أحد جسوره من جانب الرصافة إلى جانب الكرخ، قد تعرَّض أيضًا للسطو والسرقة، فمياهه ضحلة، وطينه أسود، إنه الآن لوحة حزينة لنهرٍ قديمٍ حزين..

صيَّادو السمك وباعته أصبحوا تجارًا للسيارات وأصحاب مكاتب صيرفة، واتصالات "الثريا" هذه الخدمة الغريبة التي دخلت البلاد مع القوات الأمريكية، وصارت المقاهي مزادًا علنيا لبيع البضاعة المسروقة، وممارسة السمسرة بكل أنواعها وألوانها.. أما الباعة المتجولون فقد جلسوا على الأرصفة ووضعوا مع حاجياتهم المؤلفة من علب السكائر والولاعات "فلينة كبيرة" مليئة بعلب المشروبات الكحولية بعد أن كانت ممنوعة أيضًا، وانتشرت الأدوية والمواد الطبية على صيدليات مرتجلة على الأرصفة وفي الساحات، وهذه الصيدليات تبيع كل الأدوية والعلاجات الطبية بلا رادع أو تساؤل أو استشارة طبية أو مجرد تفكير بالفرد الذي يقتني هذه الأدوية...

كلُّ شيءٍ في البلاد أصبح مباحًا، بينما تأتي أصوات إطلاق الرصاص بين الحين والآخر من اتجاهات مختلفة، وصار

العثور على الجثث مجهولة الهوية في المزابل أو في الشوارع أو على الأرصفة؛ أمرًا مألوفًا لا يثير الاستغراب أو الاستهجان.

وبينما يواصل "رشيد" تجواله، شاهده صديقه الطريف "زهير" وهو يقود سيارته ذات الطراز القديم، فصاح عليه بصوت فرح عالٍ : رشيد.. رشيد.. أنت هنا، معقولة؟.

ثم أوقف سيارته بشكل مفاجئ، وترجل منها وعانق "رشيدًا" وأخذه بالأحضان، وقال له بحماس : اصعد معي يا أخي في سيارتي، سأريك كلَّ بغداد، وما حلَّ بها من خرابٍ ودمار، اصعد، التجوال على قدميك لا يحقق لك ما تريد، ولا يشبع فضولك، أنا أعرفك.

ثم أخذ "رشيد" من يده اليمنى نحو سيارته المتوقفة، فتح له الباب، وبصمتٍ باكٍ ودهشة واستغراب؛ ركب "رشيد" في سيارة "زهير" الذي لم يصمت لحظة واحدة، كما أن "رشيدًا" كان غارقًا في تأملاته، فلم يسمع من ثرثرته كلمة واحدة، إنه مشغولٌ بما حلَّ من الكوارث في بلاده، بين ليلةٍ وضحاها.

مرَّت سيارة "زهير" ببطءٍ على البنايات المحطمة والوزارات المهجورة والمحترقة، ومراكز الاتصال والخدمة التي أصبحت ركاما وبقايا مخرّبة.

(٧)

صحت "رواء" وأهلها على جلبة الجيران وثرثرتهم، وكانت تشكو صداعًا وتعبًا إثر ليلة من الكوابيس وتقطُّع النوم، والصراع المضني مع البعوض، والقلق والترقب الآتي من زجاج النوافذ المحطمة التي تُسرِّب أصوات أزيز الرصاص القريب المنطلق من بنادق الجنود الأمريكان الذين بدأت جولاتهم المتكررة في شوارع المحلة وأزقتها.

دخل أخواها إلى الدار بسرعة وارتباك، بعد أن هرعا استجابة لطرق على الباب، استبدلا ملابسهما على عجل دون أن ينبسا بأية كلمة، أوقفت "رواء" أخاها "عامر" وسألته بشيء من التوتر والعصبية: إلى أين يا عامر؟

- إلى فندق "ميريديان" للحصول على فرصة عمل مع القوات الأميركية!.

• وماذا ستعمل معهم... دليلاً سياحيًا مثلاً ؟

- أنتِ تسخرين مني، هاه؟.. لا.. سأعمل على إزالة بقايا الأسلحة والقنابل التي قد تضر بالناس من أبناء جلدتي، وبالتالي سأحصل على مبلغ جيد يساعدنا على أزمة هذه الأيام..

• وهل هم قليلون، كي يستخدموكم طُعمًا للقنابل غير المنغلقة والأسلحة الفاسدة، لا تذهب يا عامر أرجوك ـ ثم التفتت إلى أخيها الثاني الصامت المتأهب للخروج أيضًا ـ وأنت أيضًا يا حسام، عودا إلى غرفتكما، ستستقر الأمور حتمًا، وستجدان عملاً مناسبًا في الأيام القادمة، لا تستعجلا..

وكأنهما لم يسمعا شيئًا، خرجا بسرعة، وذهبا برفقة عدد من شباب المحلة المجتمعين في رأس الزقاق.

حزنت "رواء" لإصرار أخويها على الذهاب إلى مكان تتمنى هي الآن أن يُمحى من الوجود، لقد خدع المحتلون شباب البلاد وجرّوهم إلى ميدان العمل معهم ووضعوهم طُعمًا للموت.

ورغم ذلك فقد أصبحت بعض مناطق بغداد ساحاتٍ حقيقية للقتال ضد هؤلاء القادمين من أقصى الأرض ليخربوا المنطقة بأسرها، وذهب ضحية هذه المواجهات عشرات الشباب، ومئات الأبرياء، وقد شاهد الآتون من منطقة "الدورة" جنوب بغداد مثلاً، جُثثًا عديدة في الشوارع والساحات وقد تعفّنت دون أن تُرفع، وهي لأناس أبرياء كانوا يمرون في الطريق، فصاروا هدفًا مجانيًا للقوات الغازية، وبعد أن هدأت الأجواء هدوءًا نسبيًا؛ تطوَّع بعض الخيرين وقاموا بدفن الجثث في البساتين والساحات والأرصفة الترابية.

ظلّت "رواء" قلقة وهي تنتظر عودة أخويها، ويتقطع قلبها ألمًا وهي تسمع الأخبار المنطلقة من مذياعها الصغير، وتتخيل صور القتل والتدمير التي لا تتورع عن أن تصطاد أي فرد دون أي تلكؤ أو رأفة أو واعز من ضمير إنسانيّ، انتظرت، ساعاتٍ أحسَّتها شهورًا، بينما أمها العليلة المسنة هربت من احتدام الموقف وحِدَّتِهِ وغرقت في يأسٍ صامتٍ وهي تتمتم بآيات قرآنية.

وأخيرًا.. أطلَّ أخواها، فطارت فرحًا وبهجة ونزلت دموعها وهي تضربهما برفقٍ وتبكي، فيما رفعت أمها يديها للسماء تشكر الله تعالى على لطفه ورحمته، أما حسام وعامر فقد جلسا على الأرض وهما منهكان وأخذا يتحدثان بالتناوب عن الخدعة التي ذهب جميع الشباب إلى سرابها، حدَّثاهما عن حالة بغداد وما حلَّ بها من دمار، عن الشوارع والأبنية والساحات والسيارات التي صارت ركامًا، كما تحدثا عن الفوضى التي لفَّت كلَّ شيء ، وكذلك النيران، وعن الدبابات الأميركية التي تتجول في ساحة الطيران في الباب الشرقي قُرب حديقة الأمة، فيما جدارية فائق حسن تنظر إليهم بغضب وقد تخدشت الكثير من تفاصيلها، وكذلك تبصق عليهم مفردات الحرية في نصبها الذي قالوا إن الفنان جواد سليم توفي ولم يكمله. وتحدث عامر وحسام عن الزحام غير المعقول، وعن الناس المستفزة، وعن

الشجار الحاصل بين أيِّ فردين في الشارع ولأتفه الأسباب، كما تحدثا عن الممارسات اللا أخلاقية التي صارت مُباحة بشكلٍ لا يصدَّق.

وفي الجانب الآخر، قال حسام: ما زالت الأحزاب المتنوعة تبحث لها عن مواطئ أقدام، وقواعد جماهيرية متوخاة، وهي ترفع شعاراتها ولافتاتها وتستولي على بعض المواقع التي كانت حكومية قبل أيام!.

ومن الأنباء التي حملها حسام وعامر، أن عددًا كبيرًا من رجال الشرطة ـ ضباطا ومراتب ـ تجمعوا في ملعب نادي الشرطة الواقع شرق بغداد، وكلّفوا من قبل القوات الأميركية بمهام حماية الأمن في العاصمة وأن يرافق كل شرطيين عراقيين، جنديًا أميركيًا، ويكون الشرطيان العراقيان غير مسلحين، فيما الجندي الأميركي بكامل سلاحه وعدته العسكرية!.

ومن الأنباء التي تمَّ تناقلها أن هناك حالات للنهب والسرقة من قِبَل عصابات مسلحة تقتحم المصارف والبنوك لسرقتها.. وأن هناك عددًا كبيرًا من السجناء المنسيين تحت سطح الأرض في سراديب وأنفاق تعود إلى الاستخبارات العسكرية في الكاظمية قد أخرجوا بعد أن تمَّ العثور عليهم بالمصادفة، وهم من الذين ألقوا في هذه الأقبية المعزولة في سنوات الثمانينات والتسعينات وقد عانوا الأمرين في السراديب التي تحاذي نهر دجلة.

وهناك حكايات وحكايات نُسجت حول السجناء والسجون المدفونة تحت الأرض وطبيعة السجناء وما قالوه عندما شاهدوا الشمس والناس والحياة التي وُلدوا ثانية في عبيرها. وهناك الكثير من الأخبار والقصص التي لا تنتهي، تلك التي سمعها حسام وعامر، وتسابقا لروايتها لأختهما المنُصتة بلهفة واشتياق.

(٨)

كان "ناصر السامي" الصحفي الذي ترك الصحافة مدة طويلة ليعمل مع أهله في أسواق الشورجة، يمتلك علاقاتٍ واسعة جعلته دائم التنقّل بين الوافدين من خارج البلاد، أولئك الذين تربطه بهم صداقات ومصالح وجلسات لا تُنسى بسهولة، هذه الجلسات هي ليالي خمر وغناء وأنس، وأحيانًا ليالي حُمر، مع عدد من نسائهم. "ناصر السامي" هذه المرة حصل على فرصة عمل جيدة في أحد مكاتب الإعلانات، وقد استثمر علاقاته وأسلوبه في الحديث وأناقته المفرطة، فحصل على الكثير من المواد الإعلانية التي حقَّق منها فوائد جمة، فاشترى سيارة حديثة، ووضع تحت يده مبلغًا جيدًا من المال، ليواصل عمله واقتناصه الفرص المتنوعة إضافة إلى تحقيق متعه الخاصة. وهو بسنواته السبع والأربعين وسمرته الخفيفة المحببة وشعره المصبوغ باللون الأسود بعناية وابتسامته الماكرة الرقيقة، استطاع أن يحقق صداقاتٍ إستراتيجية مع النساء "هكذا كان يعبِّر عن علاقاته الخاصة ذات النمط الذي يختاره هو" وهو يتحدث لصديقه "رشيد" عن حياته الصاخبة، فيما كان "رشيد" ينصت له مُبتسمًا، وهو لا يُخفي إعجابه ببعض

سلوكيات "ناصر" التي تتلاءم مع المجتمع الصاخب الغريب الذي صارت البلاد عليه.

وفي لقائهما المفاجئ، سأل "رشيد" صديقه "ناصر" عن صديقهما المشترك "حازم الوافي"، وعن مواقفه الطريفة وعلاقاته النسائية السريعة وعن إصراره على تناول الخمرة في كل الأوقات، وعن ثقافته العالية التي لا تضاهيها ثقافة بين جميع أصدقائهما، وقد أكَّد "ناصر السامي" على أنه دائم التواصل مع "حازم" حيث يزوره في شقته الواقعة في الأعظمية تلك الشقة التي يقيم فيها هو وزوجته حيث لم يُرزقا حتى الآن بالأطفال رغم مرور سنوات على زواجهما، كما أكَّد "ناصر" لرشيد بأن زوجة "حازم" هي سهام التي كانت زميلتهم في الكلية، والتي كان لرشيد رأيٌ سلبيٌ فيها، وفي هذا الصدد قال "ناصر" لـ"رشيد" مما حكا، هل تتذكر حين كنت تمقتها، لقد تغيرت الأمور الآن وصارت سهام زوجة لصديقنا حازم الوافي، وسأل رشيد ناصرًا بعفوية : لقد اشتقت لحازم، لماذا لا نزوره ؟ ضحك ناصر، وقال: حاضر أنا جاهز، هيا بسيارتي لزيارته في شقته، أنا متأكد أنه سيفرح بمفاجأة زيارتك إيَّاه، ولكن هل تستطيع صعود ثلاثة طوابق، وأنا أعرف أنك تشكو التهاب مفاصلك المزمن؟

قال رشيد : أستطيع من أجل حازم الوافي... أستطيع!

وانطلقا بالسيارة إلى الأعظمية، وواجها عند مدخلها رتلاً أميركيًا من السيارات الكبيرة العالية والهمرات، فأغلق الطريق، وابتعدت السيارات مسافة تُقدر بأكثر من مائة متر عن أخر سيارة أمريكية في الرتل، وأي حركة يرتاب منها الأمريكان فأنهم سينهالون رميًا عشوائيًا بالرصاص على جميع من يقف أمامهم. وبعد انتظار مزعج تجاوز ساعة كاملة ثقيلة، انطلقت سيارة "ناصر" مع جميع السيارات الزاعقة ووصلا إلى العمارة التي يسكنها حازم الوافي، ليتأهبا لصعود ثلاثة طوابق واللقاء بصديقهما القديم.

كانت العمارة ـ مثل كل البلاد الآن ـ معدومة الخدمات، وقد كثرت الأنقاض وأكوام القمامة؛ وبالذات في مدخل العمارة، هناك أطفال متسخون يلعبون في بركة ماء آسن، تملؤها أسراب الذباب والبعوض والحشرات الغريبة. شعر "رشيد" بالغثيان، وهو يتطلع إلى منظر الأطفال ضحايا الفوضى والإهمال، فيما ابتسم "ناصر" الذي يبدو أنه اعتاد المنظر، وأخذ "رشيدًا" من يده قائلاً : لنكمل مشوارنا ونرى صديقنا العزيز وزوجته، كيف يعيشان في هذه "المزبلة"؟

وبالكاد صعدا الطابقين الأول والثاني، حيث قال "رشيد" لاهثًا: سوف أموت يا "ناصر"، لنتوقف قليلاً ونستريح، وجلسا بين الطابقين، حيث الأرض الباردة والفضاء المظلم.. وبعد استراحة

قصيرة واصلا التسلّق بصعوبة، هكذا شعرا وهما يصعدان، فصعود السلالم المتهرئة، عبارة عن تسلّق، لا صعودًا طبيعيًا.

- وأخيرًا وصلنا...

هكذا زفَّ "ناصر" الخبر السعيد لـ"رشيد"، وقف "ناصر" أمام الباب وطرقه، انتظر ولم يتلق رد فعل أو إجابة على طرقاته، ثم عاود طرق الباب بقوة أكبر، وكذلك لم يتلق جوابًا، انتظر مع "رشيد" أكثر من ثلاث دقائق. تأكدا خلالها أن لا أحد في الشقة، فقررا المغادرة.

وما أن همَّا بالحركة، حتى لاحظا انفتاح الباب ليطلَّ منه وجه "حازم" وهو يبدو بعينين شبه مغمضتين وشعر كثّ، يبدو أنه نهض من النوم توًا، وكان ما يزال بملابسه الداخلية، التي هي عبارة عن فانيلة بيضاء ولباس داخلي طويل، كانت ملابسه تحمل ذكريات عن لونها الأبيض، لأنها ـ هكذا حدس "رشيد"ـ لم تُغسل منذ سنوات !.

قال "حازم" بفرح المفاجأة : معقولة، "رشيد" معك يا "ناصر" أين عثرت عليه؟

قال ناصر وهو يبتسم: أراد أن يراكَ فجلبتُهُ فورًا.

وتعانق رشيد مع حازم، وتبادلا تحايا المجاملة والاشتياق والسؤال عن الأحوال، ثم قال رشيد لحازم : ها أنت ذا لم تتغير أبدًا يا حازم، اللامبالاة ذاتها، والقذارة ذاتها، وها أنت ثمل

أيضًا، ترى متى نهضت من النوم، ومتى احتسيت هذا البلاء ؟ ثم ما هو شعور زوجتك وأنت على هذه الحالة المزرية؟

فقاطعه "ناصر" بخبث : هي أيضًا غير مبالية.. ثم وجَّه سؤاله بأسلوب غريب ينم عن ميانة زائدة لحازم : بالمناسبة، أين هي الآن ؟

أجاب حازم ببرود : لا أدري، ربما هي في المكتب الهندسي الذي تعمل فيه، أو عند أهلها في الكرادة، أو في السوق، لقد جئت إلى البيت وكانت نائمة، وصحوت وإذا بها خارج المنزل. عمومًا، سنقيم حفلة بسيطة على شرف رشيد يا ناصر، ما رأيكما بكأسين من العرق المغشوش الراقي؟!

أجابه ناصر : هل أنت مجنون يا حازم، في هذه الساعة من النهار نحتفل ؟، أنا لا أوافقك الرأي، اذهب وارم أسمالك هذه، واغسل جسدك وروحك من القاذورات ولنخرج معًا.

وكان كلامه مشوبًا بلكنة مزاح، كي لا يكون جارحًا لحازم. استدار حازم ذاهبًا إلى المطبخ، فلاحظ رشيد وناصر بقعة دائرية من بقايا "خروجه" على لباسه الداخلي من الخلف، هزَّ رشيد رأسه، وقال لناصر هامسًا : صحيح أن الطبع الذي في البدن، لا يغيِّره سوى الكفن.... والمصيبة، أنه وفي هذا الظرف الملتبس المعقد، لا يعرف أين زوجته ! أي رجل هذا ؟، لقد ندمت على زيارتي له، ظننت أن السنوات والمصائب غيَّرت شيئًا من سلوكه.

قال ناصر هامسًا: اصمت يا رشيد، فلزوجته سهام حكاية أخرى سأرويها لك بالدقة والتفصيل الممل، لأنك صديقي العزيز ولا يجوز أن أخفي عنك أمرًا.

جاء حازم وهو يحمل إبريق شاي وثلاثة أقداح، اعتذر رشيد وناصر عن تناول الشاي، وسط علامات استغراب حازم، وقال رشيد بشيء من العصبية، سنذهب الآن وسنزورك ثانية يا حازم، إن لي الآن موعدًا هامًا.

ثم نهض سريعًا، مصافحًا حازم، وتبعه ناصر بآلية، ثم ودَّعا حازم، ونزلا بسرعة. وفي سيارة ناصر، أعرب رشيد عن ندمه لهذه الزيارة المحبطة، ثم سأل بفضول ولهفة حزينة عن حكاية سهام زوجة حازم والتي يحتفظ ناصر بسرها، فأجاب ناصر ضاحكًا، لا شيء، ولكنها " قحبة".. استغرب رشيد هذه اللفظة من صديقه، وقال باستهجان: كيف تتحدث عنها هكذا؟

قال ناصر: اسمع مني واحكم عليها، مرة ذهبت إلى شقتها بناء على طلب من حازم زوجها وصديقنا كما تعلم، وكان حينها يشكو من ضائقة مالية، كعادته، وحين طرقت باب شقتهما، ظهرت لي سهام بملابس النوم، وقالت لي تفضل بالدخول، أنت لست غريبًا، ودخلت الشقة ظنًا مني أن حازم موجود، لكنه في واقع الأمر لم يكن موجودًا، وقد جلست سهام إلى جانبي في غرفة الاستقبال الصغيرة، وقالت لي بغنج صارخ، وإغراء

واضح: إن حازم قد سافر إلى الحلة لأمر يخصُّ أخاه هناك، وأنا الآن وحدي في الشقة، وقد وضعتْ يدها على فخذي، لقد شعرتُ بالحزن والأسى في أول الأمر وأبعدتُ يدها عني بلطف، إلا أنها بدأت تبكي وتتوسل قائلة إن حازم ليس رجلاً، تخيَّل هكذا قالت، وأضافت أنا كأية أنثى في هذا العالم أحتاج رجلاً حقيقيًا يُشْبع رغباتي، وأريدك أنت يا ناصر أن تكون هذا الرجل، وضعفتُ يا رشيد، وفعلت معها ما أشبع لهفتها المخنوقة لرجل، ثم حكت لي عن كل الذين راودوها، وكلهم بعلم حازم، بل أحيانًا بجلبه هو إياهم والانشغال عنها، لينامو معها، وكان في الغرفة المجاورة يسمع شهقاتها وأنينها وهمسات لذتها التي لا يستطيع هو توفيرها لها.

اصفرَّ وجهُ رشيد وهو يستمع لهذه المفاجأة الصادمة، وهذا السلوك المشين من قبل شخص غريب الأطوار حقًا، وشخص آخر يُبرِّر خطيئته وسلوكه المشين تجاه زوجة صديقه، هذا الصديق الذي جنى على نفسه وعلى زوجته التي حوَّلها إلى عاهرة رخيصة، بينما يقضي أوقاته باللامبالاة وهو هائم في الحانات والشقق القذرة والأماكن الساقطة ليشرب الخمر، ويعود إلى بيته الخرب، مثل حال بلادنا هذه الأيام.

(٩)

تندلق الأخبار على مسمع الجميع...

• ألقي القبض على محافظ البصرة الأسبق، والذي شغل مدة من عمله منصب مدير الاستخبارات العسكرية.

• هناك مصادمات مسلحة في الفلوجة الواقعة غرب بغداد، والموصل الواقعة في شمال البلاد.

• يطلق "غارنر" الأميركي؛ الذي عُيِّن حاكمًا مدنيًا على العراق؛ وُعودًا ومشاريعَ وأحلامًا ويلتقي أشخاصًا عراقيين يختارهم ليسمعوه وهم صامتون، فيما يواصل الرئيس الأميركي "جورج دبليو بوش" صراخه وزعيقه وهو فرح ثمل بما حقَّقه في العراق.

• الشائعات تتناسل، والعبث بأعصاب الناس يأخذ حيزًا كبيرًا من تفاصيل الحياة اليومية.

• انتشرت في البلاد المظاهر الدينية المعبرة عن مشاعر ملايين الناس التي كانت مكبوتة، وبالذات المواكب الحسينية وأقراص "الردات" الخاصة بواقعة الطف واستشهاد الحسين عليه السلام، وانتشرت أسماء الرواديد باسم الكربلائي وملة جليل الكربلائي بصوتيهما الشجيين، وهما يطلقان الأشعار التي تعبر عن الواقعة والفجيعة.

• أخذ الناس يتحدثون عن أسرار وأساطير وحكايات لا مصد لها، فالإعلام متوزع على مئات الصحف بلا انتظام أو موجِّه أو مصدر إخباري موثوق منه، سوى ترسيخ بعض الأسماء والمتاجرة الصحفية بمشاعر الناس من أجل الكسب المادي.

وها هو صباح جديد، ينهض من ركام الأحزان، هادئًا مترقبًا، بعد ليلٍ صافٍ قليل البعوض، ولَّد في الجميع ارتياحًا، وأطلق – على غير طبيعة هذه الأيام – نسائم منعشة، كما سقطت قطرات خجولة من المطر الذي عانق الأجساد المتعطشة له، فوقف الناس أمام أبواب بيوتهم يراقبون بقايا الحرائق، واشتعالات البارود المنتشرة أصابعه في كل مكان، وتتوالى الأخبار، وهي أكثر من المطر النازل، وتتضارب هذه الأخبار من هنا وهناك، حول أميركا وبريطانيا ومصير العراق الذي ما زال مجهولاً بينهما.

• ذكر أحد المراسلين الصحفيين الأجانب أن فندق فلسطين ميريديان في قلب بغداد، أصبح يعج بالوجوه الغريبة واللغات المتنوعة وكأنه برج بابل المتفرد بكونه مرفأ وبؤرة للأحداث ووصفها ورصدها وبثها إلى كل أرجاء العالم.

• وقالت منظمة العفو الدولية أن قوات التحالف التي احتلت العراق وأسقطت نظام الحكم فيه قد حافظت على حقول النفط أكثر من حفاظها على أرواح السكان المدنيين، من جهة أخرى

وجَّهت القوَّات الأميركية نداءات إلى أبناء الموصل لتسليمها بعض المسئولين في النظام السابق.

• وانتشرت أنباء تشير إلى أن القوات الأميركية تبحث عن مجموعة من الأشخاص، وتُلقي القبض عليهم، حيث تغلق الشارع أو الزقاق الذي يقع فيه بيت أحد المطلوبين، ثم تأخذه من بيته مُكَّتفًا، وتضع في رأسه كيسًا أسود، ثم تقتاده إلى مكان ما زال مجهولاً.

• كما أن هناك قوات أميركية أخرى تتنقل بين المناطق السكنية لتفجر القنابل العنقودية التي ألقتها طائراتها ولم تنفجر بعد.

• وتقول الأنباء، إن هناك شخصًا يدعى محمد محسن الزبيدي، عيَّن نفسه رئيسًا لحكومة بغداد المؤقتة !.

• ما زالت المظاهرات عنيفة في الموصل، وأستشهد سبعة أشخاص إثر تعرضهم لنيران الجنود الأمريكان، الذين استفزوا أبناء مدينة الحدباء برفعهم العلم الأميركي فوق إحدى البنايات التي كانت حكومية.

• روى شهود عيان من مدينة "الثورة" التي تحوَّل اسمها إلى مدينة "صدام" والتي صارت فيما بعد مدينة "الصدر" أن سياراتٍ كثيرةً بعضها مدنية والأخرى عسكرية، هجم منها أفراد "فدائيِّ صدام" على شباب المدينة ليأخذوهم بالقوّة ثم يسلموهم

السلاح وينقلوهم للمشاركة في معركة "المطار "الشهيرة، وقد كان أفراد فدائيِّ صدام يرتدون الملابس السود الكاملة ويهاجمون البيوت ليأخذوا شبابها الذين مات منهم الكثيرون في خضم هذه المعركة التي ما زالت بعض تفاصيلها لغزًا من ألغاز الحرب.

• هناك الكثير من الأحداث الدامية والمآسي والحكايات التي صارت أساطير، والتي اختلطت على الناس فنُسي الكثير منها.

(١٠)

لا علاقة لـ"رشيد" بـ"نوال ـ أم جابر"، وما يعرفه عنها هو ذاته الذي يُردِّده الناس حولها من حكايات عهرٍ ربما يكون الكثير منها ـ حسب تصوّر رشيد ـ مبالغًا فيه أو من نسج الخيال أو الشائعات، ورغم ذلك فهو لا ينكر أنه حين يصادفها في الزقاق الذي يسكنان فيه معًا، فهو يلقي عليها التحية بأدبٍ جمٍّ وحياءٍ واضح، فيما تبادله هي التحية بأحسن منها مع ابتسامة ماكرة تطلقها بلباقة عالية وهي تقول: أهلاً بأستاذنا العزيز رشيد، ثم تمضي هي في طريقها، وهو في طريقه..

وفي إحدى المرَّات حين التقى بها، انتبه إلى عباءتها السوداء ذات القماش اللماع، وقد مالت قليلاً عن جسدها، ربما مصادفة، أو بحركة مقصودة، لم يحدد رشيد ذلك بشكل نهائي، المهم، حركة العباءة هذه أظهرت جزءًا من صدر "نوال"سقطت عينا رشيد مباشرةً على هذا الجزء المكشوف من الصدر، أو لنقُل على وجه الدقة أن البياض المشرَّب بالحمرة ولثغة نهدها الفتي هي التي جرَّت عينيّ رشيد، حدّ أنه ارتبك وهو يلقي عليها التحية بآلية، فضحكت لنظرته التي سبقت ارتباكه، تلك الضحكة التي بُنيت على تصوّر مدرك لغريزة الرجل الذي تفهم المرأة الخبيرة هواجسه، فردت عليه التحية بغنج بادٍ، واستوقفته

بشكل مفاجئ، فشعر بالإحراج الشديد لأوَّل مرة في حياته، حين وقفت أمامه وأزاحت عباءتها، لتكشف له عن ضوء صدرها، مباشرة وبكل وقاحة لتسأله سؤالاً لا يقتضي هذا الاهتمام : ماذا تتوقع يا أستاذ رشيد حول الوضع الجديد في بلادنا؟

أنزل "رشيد" رأسه إلى الأسفل وأجاب بعجالة كي يتجاوز الإحراج الذي وقع فيه : لا أتوقع خيرًا يا أم جابر... إلى اللقاء.

ثم مشى مسرعًا في طريقه.

غمزته بطارف عينها، وانتبه "رشيد" إلى أنها تمتلك عينين صارختين بالرغبة الأنثوية المثيرة، وهي؛ وإن تعدت الأربعين من عمرها، إلا أن لها مزايا جمالية تحرِّك الصخر الجامد.

مضى "رشيد" وهو شبه مخدر، تحت تأثير مشاعر متداخلة يقودها الفرح الخفي الذي اقترن بكشف اللثام عن الجسد الساحر لـ"نوال"؛ هذا الجسد الذي يحفظ حكاياتٍ وأسرارًا عن علاقاتها المختلفة!.

انسابت خطوات "رشيد" إلى المقهى القريب، أحسَّ وهو يطلب الأركيلة ذات الطعم النعناعي، بأنه متحرر الآن من الكثير من القيود التي طالما فرضت حضورها عليه، وحين احتوى الرشفة الأولى من دخان الأركيلة، شعر أنه يستعيد كلَّ محاولات الحب الفاشلة التي مرَّت في حياته.

تذكَّر هيامه الأول حين كان غضًا، لا يعرف من الحب سوى التعلُّق البريء بأنثى جميلة يهيم بها، بلا أسباب محددة ولا انتظار لنتائج أو أهداف من أي شكل أو توجه، لأنه، في حينها، بعيد عن قدرته على اتخاذ قرار معين باستقلالية تامة، فهو ببساطة متناهية، كان يأخذ مصروفه اليومي من أبيه الفقير الذي يشكو دائمًا العوز والفقر والمرض المزمن، كما أن هذا الأب المجهد يتطلع لـ"رشيد" بوصفه ابنه الأكبر، الذي يحاول أن يصل إلى مرفأ يحاول من خلاله العمل وإعانة أبيه في ظرفه الصعب الذي يعيشه مع عائلته، لذلك كان رشيد ينام وينهض مع هاجس الفقر، ويعيش لحلمه الجميل الذي تجسَّد في علاقة بريئة، محلقة في الخيال مع "مها"، وقد حفظ على إثر هذه العلاقة الحلوة كلَّ أغاني وحوارات أفلام محبوب الشباب آنذاك المطرب عبد الحليم حافظ، ثم وبعد أكثر من سنة، انقطعت علاقته تلقائيًا مع "مها" لأنه قبل بالدراسة الجامعية في مدينة أخرى، ليملأ ضالته العاطفية بعلاقة نبيلة مع زميلة حلوة في الدراسة، كانت مرحة خفيفة الظل، حقَّق معها ذروة سعادته واستقراره الوجداني وهو يجلس معها في نادي الكلية نصف ساعة أو ساعة واحدة، يتحدثان فيها عن الدراسة وأحيانًا عن الشعر والأدب ، وربما يخرجان إلى سوق المدينة، فهما طالبان، يسكن كلٌّ منهما قسمًا داخليًا في وسط المدينة. وحين أنهيا دراستهما انقطعت علاقته بها، رغم أنها عندما يئست من عدم

مصارحته لها بحبه، كتبت إليه على ورقة وردية خجولة، وبحروف مرتبكة : أنا أحبك يا رشيد، فكيف تنظر لي أنت ؟ وفي اليوم الثاني لتسلّمه اعتراف "مها"؛ غاب "رشيد" عن دوامه في الكلية متجنبًا الإجابة عن سؤالها الذي اعتبره أجرأ سؤال وُجِّه إليه في حياته، لكنه تجرأ في اليوم التالي، واعتنى بهندامه وحلق ذقنه وشاربه بشكل جيد، وتعطَّر، ثم التقى بمها، وهو يحاول جاهدًا السيطرة على نبضاته المتسارعة التي فضحت ارتباكه، وقال لها بحروف لا يدري كيف انطلقت إليها وهي : أنا أيضًا أحبكِ يا مها، وكان من المفروض عليَّ، أن أبادر أنا إلى مصارحتك.

تذكّر "رشيد"ذلك الموقف البريء الجميل، وتبسم في سرِّه وهو يتطلع إلى دخان أركيلته الذي يتصاعد عاليًا ليتبدد في الهواء راسمًا أشكالاً ودوائر، وقد قال في داخله: هكذا هي أيامنا، تتبدد مثل هذا الدخان.

ثم استعاد تفاصيل التغير الجوهري الذي طرأ على حياته وغيَّر قناعاته، كما غيَّر طبيعة تعامله بالمرأة، باعتبارها أنثى يحتاجها جسدًا، بعد أن هيمنت الفكرة الروحية المثالية على تفكيره طيلة سنوات اكتشافه الأنثى، حيث كان التحاقه للخدمة بالجيش، ومن ثم ركوب زورق النار في الحرب، جعله يتعطش للحياة بكل مفرداتها، وقد وجد في الأنثى وذكراها ملاذًا له للهرب من

هواجس الموت الإنساني بعيدًا عن الحياة في المدن وأضوائها، لذلك صار هاجس الأنثى ماديًا شرسًا، وصار "رشيد" يتلصص في كل إجازة على مدن نزواته وحاجته للأنثى، فكان يزور الأماكن التي يفرغ فيها هيجانه، ولكن بكل حذر وسرية، فالعيش في الجبهات، ومواجهة الأرض الكالحة، جعله يتخيل كل لون غير اللون الكاكي هو لون أنثى !، وصار يتحرَّق للعودة بإجازة ليرتاد أماكن الرجس ليطفئ فيها حرائقه، وليحقق توازنه النفسي والإنساني.. حتى نُقل إلى معسكرات العاصمة لتستقر نظرته إلى الأشياء مجددًا، وليعود إلى خجله وكياسته وأسلوب تعامله المتوازن مع المرأة.

أما "مها" فقد طلبت منه الزواج بعد أن تصارحا، وقد أخبرها بأنه فقير معدم ولا يستطيع أن يتزوج، كما أنه وهو داخل في قبو الجيش لا يضمن له أي شيء، فالحرب مشتعلة، والموت متوقع في أية لحظة، ولا يستطيع أن يربطها معه بمصير مهدد.

"رشيد" الآن بلا حبيبة، أنثاه الكتاب، وأجواؤه الذكريات، والأوقات المسترخية التي يقضيها في حوار غريب مع أركيلته أو صمته وتأمله أثناء تجواله على قدميه...

لذلك كله، حين عاد إلى البيت مساء، تذكر عري صدر "نوال" الأبيض المشرب بالحمرة، تذكّر أيضًا سحر عينيها وغنجها، وأنوثتها الصارخة، ونام حالمًا بمفاتنها...

ليصحو على صراخ قريب..
- انهض يا رشيد، لقد تُوفي جارنا أبو جابر زوج نوال، وجدوه ميتًا في فراشه !.

غسل رشيد وجهه غير مُصدِّق النبأ، واستبدل ملابسه على عجل، وذهب إلى بيت "أبي جابر"، وجد الناس محتشدين في غرفة نومه، بينما أم جابر وجابر وأخوه وأخته يبكون برعب غير مصدقين هذا الموت المفاجئ.
كان "أبو جابر" مغطى بشرشف مبقع بزهور زرق صغيرة، وقد فحصه "طبيب المحلة" المقيم في الزقاق ذاته الذي يقيم فيه رشيد ونوال ، وقال : أتوقع أنه أصيب بسكتة قلبية مفاجئة.

أخرجوا جثة أبي جابر إلى باحة البيت وانتظروا مجيء أقاربه بعد أن نُقل إليهم نبأ وفاته، ليقوموا بواجب تغسيله ودفنه، في مقبرة النجف الأشرف، مع إقامة مجلس العزاء على روحه، وعرف رشيد فيما بعد، من شائعة سرعان ما انتشرت بأن أبا جابر الذي تجاوز الستين من عمره قد تناول حبوب " الفياجرا" المنشطة للجنس ليطفئ عن طريقها نيران شهوة زوجته "نوال"، لكن قلبه لم يسعفه لأداء هذا المهمة، فصمت صمتًا أبديًا..
وكانت هذه الشائعة التي سرعان ما انتشرت بين سُكَّان المحلة، ذنبًا جديدًا مضافًا إلى ملف " نوال" !.

(١١)

"ناصر سامي" الصحفي؛ وأحيانًا الكاتب؛ الذي تعددت روافد حياته، وتشعبَّت علاقاته، كما قلنا عنه، حظي بفرص كبيرة في حياته، جعلته هذه الفرص، يجوب حقول ذكرياته مستأنسًا بها، ولأن أباه كان في السابق، وقبل إحالته على التقاعد، يعمل في السلك الدبلوماسي، فقد زار "ناصر" بلدانًا كثيرة بصحبة عائلته، وتزوَّج بسنٍّ مبكرة من فتاة أحبها حُبًّا جارفًا لا يُصدَّق، وعاش معها حلمًا ساحرًا، وبالذات في شهر العسل، الذي قضياه في العاصمة البريطانية لندن، والتقطا مئات الصور في شتى أرجاء مدينة الضباب..

ثم عاد "ناصر" مع زوجته إلى بغداد واستأجر شقة في قلب المدينة، وبدأ نشاطه الموزع بين الصحافة والترجمة عن الإنكليزية؛ حين يكون مزاجه رائقًا؛ كما امتهن التجارة في بعض الأحيان، وقد رُزق بولدٍ أسماه "أحمد"، ودرس في الجامعة وتعرَّف على "رشيد" في إحدى قاعات عرض اللوحات التشكيلية في الكلية التي قبل بها "ناصر" بعد عودته من لندن، وكان الذي جذبه في "رشيد" هو حذقه وهدوؤه، وطريقة مناقشته اللوحات المعروضة من قبل الفنانين من الطلبة والأساتذة على السواء.

كان "ناصر" إذا تضايق، يلجأ إلى خزين ذكرياته، وربما خرج من نمط تسجيل هذه الذكريات إلى عادة غريبة وهي جمع قناني العطر الفارغة التي نفد ما بداخلها من العطر، وكل قنينة عطر فارغة؛ لها دلالتها التي يستعيد فيها ناصر تفاصيل فترة كاملة من حياته حين يستنشق ما تبقى منها، وهو من ترسبات خزين ذاكرته الصاخبة دائمًا، أو حين يلاحظ لونها أو شكلها، كل قنينة عطر فارغة مدينة، وربما امرأة، أو ذكرى معاناة ما، أو موقف معين.. هذه من باريس حين كان عازبًا واقتناها لأنها ذات رائحة جذبتْ انتباه إحدى الفتيات الباريسيات، الغارقات في بحر الرومانسية، لم يعرف ناصر التحدث معها بلغة الكلام والحروف والجُمل العائمة، فلجأ إلى لغة العطر، التي تبادل معها عبرها حديثًا في غاية الجمال والرقة، وعبَّر عن إعجابه بالابتسامات والإشارات المعبرة عن اللوعة والحب والإعجاب، ثم ربطتهما قنينة العطر هذه بعلاقة باذخة الجمال، وهي تعبق بجمال الأنثى وروعة المدينة الحالمة وسحر الأجواء المحيطة بها.

وهكذا، لكلِّ قنينة عطرٍ حكاية يستعيدها في لحظات ضيقه وبحثه عما يبعث الأمل والراحة في داخله، وهذه القناني الزجاجية الفارغة جمعها ناصر في حقيبة جلدية أخفاها في مخزن يقع في إحدى زوايا شقته.

وقد مرّت على "ناصر" ـ رغم حذقه وشطارته في الكثير من الأعمال المتنوعة ـ أوقاتُ ضيقٍ ماليٍّ تعرَّض على إثرها لإحراجات شديدة، وقد التجأ لحل أزماته تلك؛ إلى بيع الكثير من مقتنياته من تحف وأشياء نادرة جمعها من المُدن المختلفة التي زارها.

وأخيرًا، عمل في الصحافة الأسبوعية التي شاعت قبل سقوط نظام صدام حسين بسنوات خمس أو ست، انطلقت بدءًا من جريدة "بابل" التي أطلقها عدي بن صدام حسين مطلع التسعينات، وتحديدًا بعد انتهاء حرب الخليج الثانية التي حملت تسمية ـ عاصفة الصحراء ـ وأسماها نظام صدام حسين "أم المعارك"، وقد كانت هذه الصحيفة جريئة مقروءة نجحت جماهيريًا وتلقفها الناس لأنها كانت الصحيفة الوحيدة في العراق خارج الإطار الرسمي للصحف الرسمية الأربع التي تشابهت في معظم صفحاتها، وتطابقت صفحاتها الأول في أخبارها وتقاريرها وهذه الصحف هي "الثورة" و"الجمهورية" و"القادسية" و"العراق".

وفي منتصف التسعينات سعى عدي صدام حسين إلى إطلاق منظومة صحف أسبوعية متنوعة، وكانت جميعها خارج الإطار الرسمي للصحف الصادرة، ومن هذه الصحف "الرافدين" و"نبض الشباب" و"المصور العربي" وغيرها، وقد عمل

"ناصر" محررًا في جريدة "الرافدين" الأسبوعية، وسرعان ما انتقل منها إلى "نبض الشباب" وبعدها إلى "المصور العربي" وهكذا، حتى يئس من هذه الصحف التي لم تُلبِ طموحه الإعلامي، فأخذ سيَّارة والده وعمل فيها سائقًا للأجرة، دون علم والده الذي تقاعد من عمله في السلك الدبلوماسي عام ١٩٩٠، وبقي في البيت يتابع السياسة وتقلباتها عن بعد ويشعر بوخزة من ندم على سنواته التي قضاها في عمله المُضني الذي أدى إلى لا شيء يحسب له، سوى دنانير قليلة حُسبت له كراتب تقاعدي مُذّل.

أيام "ناصر سامي" بعد احتلال البلاد وسقوط نظامه، مكتظة بالبحث عن مرفأ يستقر به، وبعد أن حظي بفرصة وفرَّت له مبلغًا جيدًا، بدأ يبحث عن استقرار جدي لوضعه، حيث صارت له سيارة حديثة وعمل مناسب في مكتب إعلاني.

وها هو، يفرغ قنينة عطرٍ جديدة، ليضيفها إلى مستودع خزانته، وليكتب على هذه القنينة اسم "سهام"، لأنها أهدته إياها في لحظة شهوة جامحة، أبدى فيها جميع مهاراته الذكورية وهو يمنحها لذة قالت له إنها لم تشعر بمثلها أبدًا على الرغم من مضاجعة عدد غير قليل من الرجال، ومن الذين يتمتعون بخبرة طويلة في هذه الأمور !.

وضع هذه القنينة الفارغة حديثًا على طاولة كتابته وراح يتأمل جسدها الزجاجي ذا اللون الأزرق الهادئ، ويسقط جسد "سهام" عليه، وربما أثارته هذه القنينة أكثر من مشاهدته لأيِّ فيلم جنسي، فيه لقطات من الإثارة والعري.

وفي مراتٍ، يشعر فيها بتأنيب الضمير، وبالذات حين يكون مع "حازم الوافي" زوج "سهام " وصديقه القديم، يتحدث معه بودٍّ مشيرًا إلى ضرورة اهتمامه بزوجته التي هي بالتأكيد بحاجة إليه، وهو بذلك يلمِّح طبعًا إلى أن المرأة بحاجة إلى رجل، وعلى حازم أن ينتبه إلى أن تجاهله لامرأته قد يؤدي إلى اختيارها رجلاً آخر تستطيع معه إشباع رغباتها، وكان ردُّ "حازم" باردًا بليدًا، بل فيه تلميح إلى أنه يعرف بأن زوجته تمتلك علاقات عديدة مع رجال آخرين وأن الأمر لم يعد يهمه، طالما تركته على حاله، ولأجوائه يسرح ويمرح، في الحانات والمكاتب المتنوعة والشقق القذرة، وأحيانًا يبيت خارج البيت ليالٍ متواصلة لا يسأل فيها عنها، ولا تسأل هي عنه!!.

وبقي "ناصر سامي" على علاقته بـ"سهام" رغم تقريع "رشيد" له وإلحاحه عليه لتركها لأنها باتت سيئة السمعة والسلوك، وستجره إلى منطقة سوئها بمرور الأيام، أو قد تسبب له مشاكل هو في غنى عنها مع عائلته، لأن هذا النوع من النساء ينطوي على مشاكل كثيرة وعلاقات مشبوهة تؤدي إلى الويلات.

كان "ناصر" يصغي لـ"رشيد"، ولكنه لم يقرر بشكل نهائي قطع علاقته بـ"سهام"، لأنه هو أيضًا بحاجة إليها، وإلى غنجها وإغرائها له بدفق من صهيل الأنوثة وصرخات تضاريس جسدها، كما أنها مستعدة لعمل أي شيء من أجل الحفاظ على علاقته بها.

(١٢)

لـ"رواء" صديقات قليلات جدًا، فهي لا تخرج من منزلها إلا نادرًا، وحتى هذه الـ"نادرًا" ألغيت في الظروف الحالية، لأن "رواء" تخشى الكثير من الأمور في ظل الانفلات الأمني والفوضى التي تعم البلاد هذه الأيام.

وقد وجدت مقترح أمها بزيارة "أم جابر" وتقديم التعازي لها بوفاة زوجها، مقترحًا معقولاً، لأن المرأة جارتهم، وزيارتها في هذا المصاب الذي ألمَّ بها واجبة.. وهكذا ارتدت كلٌّ من "رواء" وأمها ملابس الحداد السود، وذهبتا إلى بيت "أم جابر" حيث مجلس العزاء الخاص بالنساء، فيما نُصبت الخيمة الكبيرة خارج البيت للرجال، حيث وُضع فيها أكثر من مائة كرسيّ، مع آلة تسجيل، انطلق منها الصوت الشجي للقارئ المعروف عبد الباسط عبد الصمد، ونُصب في أحد جوانب الخيمة سرداق صغير لمواد تقديم الشاي والقهوة وماء الشرب للمعزين.

ولأن "أبا جابر" منغلقٌ في حياته ولا يمتلك إلا علاقات اجتماعية قليلة، كما أن سمعته وسمعة زوجته، حدَّدت معارفه في المحلة، كان حضور الرجال إلى مجلس عزائه قليلاً، وكانت الخدمات المُقدَمة في خيمة قراءة الفاتحة على روحه شحيحة، فيما تجمعت نساء المحلة في بيت "أم جابر" الصغير، لأسباب

تتجاوز موضوع تعزيتها بالنسبة للنساء، بل لتداول الأخبار والشائعات ومعادلة القيل والقال.

وحين دخلت "رواء" وأمها إلى بيت "أم جابر" سرعان ما نهضت إلى استقبالهما وكانت ترتدي ثوبًا أسود فضفاضًا، وقد لاحظت "رواء" أن عينيها لا تشيران إلى بكاء طويل؛ كما هي عادة الأرملة التي تفقد زوجها، هكذا بشكل مفاجئ؛ بل وجدت فيها المكر الشديد وملامح الحقد الغريب والتحدي، لاسيّما أن ثوبها الأسود مفتوح من الأعلى وأن صدرها البض الأبيض ظاهر للعيان، الأمر الذي أثار انتباه جميع النسوة المعزيات، وكأنها كانت تتباهى بامتلاكها جسدًا جميلاً مُثيرًا يذوب جميع الرجال فيه سحرًا وشهوةً وإثارة.. سلَّمت "رواء" وأمها على "أم جابر" وقدمتا التعازي وعبارات المواساة التقليدية المتعارف عليها في مثل هكذا محافل حزينة، ثم جلستا في ركن من أركان صالة غرفة الاستقبال المزدحمة بالنساء وبعض الأطفال، وفيما عينا "رواء" تتنقلان بين الوجوه المحتشدة، لاحظت تواجد صديقتها القديمة "سحر" وهي تجلس بين اثنتين من النساء اللائي تلاصقن معها في جلستهن، وكانت "رواء" لا تعرف أيًّا من هاتين المرأتين اللتين؛ وكما يبدو؛ ترافقان صديقتها القديمة "سحر" التي استغرقت معهن بحديث يبدو ذا أهمية للانفعال الذي رصدته "رواء" على ملامح "سحر" وهي تتحدث.

حاولت "رواء" أن تلفت إليها انتباه صديقتها "سحر"، ولكن عبثًا، وبما أن طبيعة الجلسة الحزينة لا تسمح بمناداتها بصوتٍ عالٍ، فقد بقيت "رواء" متعطشة للحديث مع صديقتها القديمة ومعرفة أخبارها وأحوالها، بعد أن قضتا معًا سنوات الدراسة الابتدائية والمتوسطة، ثم افترقتا وغابت أخبار الواحدة عن الأخرى.. وبعد وقت خالته "رواء" طويلاً، لاحت التفاتة من "سحر" فالتقت عيناها بعينيّ صديقتها المتلهفة لها "رواء"، وقد شهقت "سحر" من أثر المفاجأة، وقامت فورًا، وبشكل لا إرادي من مكانها، لتتوجه إلى "رواء" وتتعانق معها، وقد كسرت بذلك أجواء الطقس الحزين الذي هيمن على المكان في صالة غرفة استقبال الأرملة الجديدة "أم جابر"، وأخذت "سحر" تطلق عبارات التحيات والأشواق لصديقتها القديمة "رواء"، وبصوتٍ عالٍ ينم عن فرحها الكبير بهذا اللقاء المفاجئ المدهش، وصار الحديث الآن بين الصديقتين القديمتين مثار الجالسات وفضولهن في مجلس العزاء الذي دخل مسارًا آخر في الممارسة الاجتماعية، وتوالت الأسئلة من الجانبين، أين أنتِ الآن ؟، وإلى أين وصلتِ في الدراسة ؟، وهل تزوجتِ أم ما زلتِ تنتظرين قسمتك؟، وقالت "سحر" لـ"رواء": كنتِ أذكانا فكيف تركتِ الدراسة مع أن معدلك النهائي هو أمنية كل طالبة كانت معنا ؟، وحين سألتْ "رواء" "سحر" عن وضعها الاجتماعي، قالت "سحر" بحماس: لقد أنهيت الدراسة المتوسطة

كما تعلمين وتنقَّلنا في أكثر من دار سكنية وأكثر من محلة، وشاءت الأقدار أن أتزوج من قريبٍ لي، وقد أقنعته بمرور السنين بضرورة إكمال دراستي، فوافق على ذلك، فقدَّمتُ للامتحان الخارجي لنيل الشهادة الإعدادية، وامتحنتُ ونجحت، وبعدها قدَّمتُ للدراسة المسائية في كلية التربية ـ جامعة بغداد، وها أنا ذي طالبة في السنة الثانية في هذه الكليّة، رغم أن دوامنا قد تأخر هذا العام بسبب ظروف الحرب وما عصف في البلاد من متغيرات، إلا أننا سنواصل الدوام بعد أيَّام، وفي فترة الظهيرة كما أبلغونا؛ وذلك تحسبًا للظروف الأمنية السيئة.

كانت "رواء" منصتة بكل جوارحها لحديث صديقتها القديمة، وقد باغتتها بسؤالٍ طرأ على بال "رواء"، حيث قالت: والأطفال يا سحر، ألم ترزقي بأطفال؟

قالت "سحر" بشيءٍ من الزهو: اتفقت مع زوجي أن نؤجل الإنجاب حتى إكمال دراستي، لقد وافق على ذلك، إنه رائع ويحبني كثيرًا، ويسعى لإسعادي بكافة الوسائل.

ثم سألت "رواء" صديقتها بشيءٍ من الفضول: وماذا يعمل زوجك الرائع هذا؟

أجابت "سحر" على الفور: إنه وكيل للأدوات الاحتياطية للسيارات، ووضعه المادي جيد...

ثم باغتت "سحر" صديقتها قائلة: لماذا لا تقدِّمين أوراقك وشهادتك الإعدادية للقبول في أي كلية تختارينها يا رواء ؟ أو... هل تريدين رأيي في ذلك، قدِّمي للدراسة معي في كلية التربية فهي كلية كما تعلمين تخرج كوادر تدريسية، ومهنة التعليم مناسبة لنا نحن النساء، قرِّري الأمر ووافيني إلى البيت الذي يقع قريبًا من هنا، حيث سكّنا في بيتٍ قريبٍ من السوق بشكل مؤقت، وما أن تصلي إلى دائرة الكهرباء في السوق حتى تكوني قريبة من بيتنا، اسألي هناك أيَّ محل عن بيت سلمان وسيدلّوك فورًا، فزوجي معروفٌ هناك.

صمتت "رواء" طويلاً وأجابت صديقتها القديمة بيأسٍ وأسى: سأحاول إقناع أخويَّ وأمي، رغم أنني واثقة من أن أخويَّ لن يوافقا، لكنني سأحاول معهما، والله الموفق.

وبعد وقتٍ جيدٍ مع صديقتها "سحر"؛ نهضت "رواء" وأمها بعد إعادة قراءة الفاتحة على روح المرحوم "أبي جابر" لتعودا إلى البيت، بعد أن ودَّعتا الجميع.

في الطريق قالت "رواء" لأمها: هل تعلمين يا أماه بأن سحر صديقتي تواصل الدراسة المسائية في كلية التربية وبتشجيع ودعم من زوجها، وهي الآن في السنة الثانية، وبعد سنتين ستتخرج مُدرسة في الإعدادية؟

قالت الأم بلامبالاة: وفقَّها الله تعالى، فهي كما أعرف مثلك مثابرة دؤوب ذكية..

وباغتتها رواء بسؤال شكل مفاجأة لأمها: لماذا لا أدرس أنا في الكلية المسائية يا أمي؟

أجابت الأم بشيءٍ من الانفعال التلقائي: في هذا الظرف الصعب يا رواء؟.. وأخواكِ هل تعتقدين أنهما سيوافقان؟

قالت رواء بغنج طفولي: البركة فيكِ يا أماه، أنت ستقنعينهما بذلك!.

صمتت الأم وهي تدفع بيدها المجهدة باب بيتهم، لتدخل هي و"رواء" إلى البيت، ويبدأ صمت الأم وتمتمتها بالأدعية والآيات القرآنية... فيما تنطلق أحلام "رواء" وآمالها في العودة إلى الدراسة في الكلية المسائية لتحقيق ما لم تستطع تحقيقه سابقًا.

(١٣)

شعر "رشيد" بالكآبة والسأم، رغم أن الصباح الجديد الذي تمطى بين يديه يحمل نسائم عذبة ويشير إلى يوم ذي طقس معتدل.

قرَّر الخروج من البيت، وكانت أقرب منطقة يمكنه الذهاب إليها ومشاهدة الناس ومعرفة الأخبار الجديدة وما يحدث حوله، هي منطقة "الكاظمية"، وألغى "رشيد" قرارًا سابقًا قد اتخذه؛ وهو المرور على بيت صديقه الموتور دائمًا "سلام"، حيث يقع هذا البيت في طريق "رشيد" وهو يتوجه مشيًا إلى كراج سيارات الأجرة الكبيرة التي تذهب إلى الكاظمية، وفضَّل أن يذهب وحيدًا ليتأمل ويكتشف، دون منغصات، فـ"سلام" كثير الجدل والتساؤلات، كما أنه قليل المعلومات شحيح القراءة، ويُشكِّل متاعب لـ"رشيد"... أما كيف صارا صديقين، فالمصادفة وحدها وراء ذلك، وموقع بيت "سلام" الذي جعله يعترض طريق "رشيد" ويلقي عليه التحية بحرارة، وطالما رافقه في الركوب معًا في السيارات المنطلقة من الكراج... المهم، فضَّل رشيد المسير وحيدًا، وقرَّر أن يمشي باتجاه الكاظمية على قدميه، حتى يشعر بالتعب، عندها يركب أول سيارة أجرة يقابلها، وكانت المسافة التي قطعها مكتظة ببقايا الحرب من قنابل

عنقودية وبقايا أسلحة محروقة، ومواد منهوبة تعرضت للتلف، كما شاهد لافتاتٍ وقِطعًا وإعلاناتٍ عن مواكب حسينية متنوعة الأسماء والتسميات، وهناك شعارات جديدة ومقرات لأحزاب وحركات ومنظمات، وبعد أن شعر بصعود الإجهاد وألم المفاصل، توقَّف "رشيد" حتى جاءت سيارة صفراء كبيرة من التي اشتهرت بنقل الركاب في هذا المكان، أشار "رشيد" للسيارة، فتوقفت رغم امتلائها بالركاب جلوسًا ووقوفًا، فصعد "رشيد" وتوقف في ممرها الضيق الطويل مع الواقفين، تحركت السيارة المزدحمة، وهي تتهادى ببطء، الأمر الذي سمح لـ"رشيد" بمواصلة تأمله ومشاهداته لما حلَّ بالمدينة من دمار وويلات، حتى وصلت السيارة إلى مشارف الكاظمية، فترَّجل منها جميع الركاب بصخب وجلبة لا داعي لهما.

دخل "رشيد" سوق الكاظمية المزدحم، وبعد أن تمشي قليلاً، واجه الضريح ذا القبتين الذهبيتين الشاهقتين للإمام موسى بن جعفر الكاظم عليهما السلام، فشعر بالهيبة والخشوع وتمتم: "السلام عليك يا أبا الجوادين، السلام عليك يا قاضي الحوائج، السلام عليك يا موسى الكاظم ورحمة الله وبركاته"، ثم قرأ سورة الفاتحة وواصل سيره، حتى واجهته، في الشارع الواسع المؤدي إلى إحدى بوابات الضريح، متوالية منتظمة من المواكب الحسينية التي تعبر عن ممارساتها طقوس التعبير عن الولاء الحسيني، رصد "رشيد" أحد المواكب، صفوف من

الرجال تتقدم سيارة من نوع بيك آب، وفي حوضها الخلفي رجل يحمل مكبر صوت يدويًا وهو يُردِّد القصائد الحسينية التي تتحدث عن واقعة الطف بكلمات معبرة مؤثرة حزينة، وبترنيمات تتوافق مع حركة أيدي الرجال وهي تنزل لاطمة الصدور بحركة متناسقة موحدة، ويُردِّدون بعض الكلمات الآتية من مكبر الصوت، وهم واقفون مشكِّلين دوائر متداخلة، ثم بعد أن يؤدوا طقوس "اللطمية" ينتظمون صفوفًا، تتقدمهم الرايات الضخمة السود والخضر والحمر، والتي يهزها حاملوها لتزيد المشهد هيبة وجمالاً، ثم تسير الصفوف منتظمة خطوات وهي تؤدي لازمة موحدة، ثم تتوقف لتعيد رسم دوائرها وتعيد كَرة "اللطم" من جديد.. وهكذا يمضي موكب ليتبعه موكب جديد لمجموعة جديدة، وممارسة مختلفة لطقوس التعبير لا تقل مهارةً وجمالاً وتنظيمًا عن سابقتها، وهكذا تتدفق حلقات سلسلة طويلة من المواكب الآتية من مناطق مختلفة من بغداد وبعض المحافظات القريبة منها.

أما على جانبي الرصيف، فيقف الناس؛ نساءً متلفعات بالسواد، ورجالاً يتأملون المشهد وهم متفاعلون معه وجدانيًا، فهم يُردِّدون ويبكون ويتأملون جميعًا مسير المواكب في الشارع الكبير الذي يؤدي إلى باب المراد، وهو من أبواب الدخول إلى ضريح الإمام عليه السلام.

وبعد أن قضى وقتًا أحسَّه طيبًا، وهو يتابع قاطرة هذه المواكب التي بدأت منذ هذه الانطلاقة نشاطها بحرية كاملة وتعطش دام سنوات طويلة، ذهب "رشيد" إلى أمكنة أخرى في هذه المدينة القديمة، وفي تجواله شاهد على أحد جدران منازلها المُطّلة على الشارع العام قوائم لُصقت، وهذه القوائم هي أسماء مطبوعة بالآلة الكاتبة على ورق أبيض، وهي تعود لسجناء تمَّ العثور على جثثهم، وقد تجمع الناس حول هذه القوائم، التي دنا منها "رشيد" وقرأ فيها معلومات تثير الدهشة والاستغراب بالنسبة له، فهي تشير إلى سجون سرِّية بعضها يقع تحت "نصب الشهيد" هذا الصرح الهائل والبناء المُتقدم عُمرانًا وفنًّا، والذي يقع في شرق بغداد، في مكان شبه منعزل، وبجواره بحيرة واسعة جميلة ثم مدينة الألعاب الرئيسية في بغداد، كما فوجئ "رشيد" بإشارة أخرى ضمتها القوائم المعلقة على الجدار، وهي لسجن سرِّي آخر يقع في نفق "ساحة التحرير" الذي يتوسط بغداد، ويقع في مدخل الرصافة، بعد عبور جسر الجمهورية مباشرة، حيث يقع النفق بين نهاية الجسر المحاذية لشارع أبي نواس وحديقة الأمة الشهيرة التي تقع بين نصبين خالدين؛ الأول هو نصب الحرية لـ"الجواد سليم" وجداريه "فائق حسن" التي شهدت قصائدَ وقصصًا وأعمالاً أدبية وفنية مختلفة، ولعل أشهر ما يرتبط بهذه الجدارية، قصيدة الشاعر "سعدي يوسف" التي حملت عنوان "قصيدة للجبهة... تحت

جدارية فائق حسن" وهي من أجمل قصائده ذات المنحى السياسي والوجداني العميق، التي أشار فيها للحمامات البيض التي رسمها الفنان في أعلى اللوحة الكبيرة، وكأنها تنطلق في كبد السماء، حيث جاء في مطلع القصيدة: "تطيرُ الحماماتُ في ساحةِ الطيران... البنادقُ تتبعها... وتطيرُ الحمامات".

ومن السجون الأخرى التي تمَّ ذكرها في القوائم المعلقة على الجدار؛ سجنٌ في نصب الجندي المجهول القريب من القصر الجمهوري والذي يقع في ساحة الاحتفالات الكبرى في بغداد، والتي يشهق في مدخلها سيفان متقاطعان وشارع عريض واسع شهد استعراضات عديدة للجيش العراقي، كما شهد احتشاد الناس في مناسبات كثيرة، حيث تمثل الساحة الواسعة المزروعة بالثيل الأخضر المسقي دائمًا مرتعًا للاحتفالات التي تشهد تجمعات كبيرة من الناس.. في هذه السجون يقبع رجالٌ لا يُعرف عن مصيرهم شيء، وقد كُتبت أسماؤهم الثلاثية في هذه القوائم، التي ازدادت حولها حشود الناس الباحثين عن مفقوديهم أو أولئك الذين طفح فيهم كيلُ الفضول فتجمعوا لمعرفة الأسماء علَّهم يعرفون شخصًا معينًا فيبادرون أهله بمعلومة عنه. بعض الأسماء مكتوبة بخط اليد، وبعضها الآخر مطبوع على الآلة الكاتبة، وكل القوائم مستنسخة، فالظاهر أن نُسخها الأخرى قد عُرضت في أكثر من مكان ليعرفها أكبر عدد من الناس، أما أعداد السجناء فهي بالمئات، وأسماؤهم مذكورة بشكل عشوائي،

لذلك على الباحث عن اسمٍ معينٍ أن يقرأ عددًا كبيرًا من الأسماء حتى يصل ضالته.. أما كيف عُثر على هذه الأسماء، وأين، ومن الذي عثر عليها واستنسخها وبثَّها، وما هو موقف الناس وذوي هؤلاء المنسيين من السجناء الذين أبهم مصيرهم وغيبوا في المجهول، ثم ما الذنب الحقيقي الذي اقترفوه ؟...

لا أحد يستطيع الإجابة عن الكثير من هذه الأسئلة، وأسئلة كثيرة أخرى تتشعب منها، ربما لسجانيهم رأيٌ آخر.. هي قضية لا تحبذ اجتهادًا كثيرًا في توصيفها أو الحكم عليها، ولكن مهما يكن من أمر، فأن جرائمهم ذات الطابع السياسي حتمًا لا تقتضي كلَّ هذه القسوة سواء في طبيعة سجنهم أم في قتلهم بطرق شتَّى.

وقرر "رشيد" بعد هذه الجولة الغريبة أن يعود إلى البيت بالطريقة التي جاء بها، وهي أن يتمشى، ومتى ما صرخ ألم مفاصله، فإنه سيستعين بأقرب سيارة أجرة لإكمال مشواره في العودة. وفي الطريق لاحظ استفزاز الناس وحيرتهم البادية في التعبير، وهم يقفون في مفترق طريق جديد اختلطت عليهم فيه الأوراق وتداخلت الرؤى والتصورات.

الدبابات الأميركية تجوب الشوارع بكلِّ طمأنينة، فيما الرعب يظهر واضحًا في عيون الناس حين تقترب منهم هذه الآلات الوحشية المخيفة، إنها تبدو سلاحًا فتاكًا لا يعرف الرحمة، ولا يناله الخطأ في الأداء !.

سمع "رشيد" مما سمعه من شائعات تخص مصير البلاد وخصوصية أبنائه، أن العملة من فئة عشرة آلاف دينار "الحمراء" بدأ تداولها يضعف، وكثرت الأوراق المزورة منها، وبات التجار يشترونها بسعر أقل من قيمتها الحقيقية بكثير، وقد ظهرت الكثير من الشائعات حول هذه العملة التي هي أصلاً جديدة على العملة العراقية المتداولة، ضحك "رشيد" في سرِّه، لأنه لا يمتلك منها إلا ثلاث أوراق، يعني ثلاثين ألف دينار، هي كلُّ ثروته التي بقيت لديه من راتبه الشهري ومدخراته التي احتفظ بها لوقت الضيق، وهذا المبلغ يعد تافهًا، لا يكفيه إلا أيامًا معدودات.

وفي البيت الذي بدا محتشدًا بالأهل والأقارب الذين يتحدثون عن ما سمعوه من أنباء وحكايات وشائعات وصل نسيجها حد الأساطير، كما دارت أحاديث متشعبة حول من سرق ومن نهب ومن أستشهد ومن فقد ذراعًا أو ساقًا أو عينًا أو أسر أو سُجن لدى القوات الأميركية، التي قامت بإطلاق سراح مئات الأسرى والسجناء الذين لم تكتشف القوات الأميركية أية علاقة لهم بالأحداث في العراق وهم غير مرتبطين أو معنيين بشكل أو بآخر بالنظام السابق الذي أسقط في نيسان ٢٠٠٣، صعد رشيد إلى غرفته، أشعل فانوسه النفطي الصغير، وتناول أقرب كتاب إليه، وبدأ يقرأ.. حتى أخذه سلطان النوم.

(١٤)

قدَّر "حازم الوافي" أنه يجب أن ينفصل عن زوجته "سهام"، وهذا التقدير جاء حين لمحها وهي تجلس إلى جانب رجل غريب في سيَّارة فخمة؛ هي ليست للأجرة بالتأكيد، وأن الرجل الذي كانت "سهام" تجلس إلى جانبه، وتبدو في غاية الانسجام والتفاعل معه، فهي تضحك وتومئ ووو...؛ لا يعرفه "حازم".

وحقيقة الأمر أن "حازم" يعرف أن لزوجته علاقات ومغامرات، مع الكثير من الرجال، كما أنه يعرف بعلاقتها مع صديقه "ناصر"، إلا أنه أراد ذريعة مباشرة ليقرِّر موضوع انفصاله عنها، لكن هذا القرار مقموع بتردد دائم منه لأسباب عديدة منها المهر المؤجل الثقيل الذي سجَّله لها في عقد الزواج معتبرًا الأمر؛ في حينها؛ شيئًا من المزاح، إلا أنه الآن لا يقدم على مشروع انفصاله منها، رغم قناعته بذلك، واتخاذه القرار مع وقف التنفيذ.

والانفصال والطلاق عادة مألوفة لدى "حازم " فهو سبق أن فعلها ثلاث مرات مع نسائه السابقات، وحقيقة الأمر أن لحازم وضعًا خاصًا في علاقته بالمرأة، فهو يبني علاقة مفاجئة مع فتاة تجذب انتباهه، وهي عادة على شيء كبير من الجمال

والإثارة، ثم سرعان ما تراه مستغرقًا معها في علاقة حب جارفة، تؤدي إلى ارتباطه السريع بها، ثم تراهما بعد أيام من زواجهما يتنقلان معًا في كل مكان يزوره "حازم"، وأحيانًا ترافقه زوجته في الحانات التي يدخلها، وتجلس معه بين أصدقائه، تشاركهم الحديث والحوار، وأحيانًا تشرب الخمرة معهم، وفي أكثر الأحيان يرافقهما لمكان سكنهما صديق أو صديقان، ليباتا في غرفة الاستقبال، بعد أن يكملا سهرة حوار حيوي دائمًا، مع كؤوس من الخمرة تضيء بقايا الليل، أما "حازم " فيأخذ المرأة غطاءً لما يعانيه وتكتشفه الزوجة في الليلة الأولى من حياته معها، فهو عاجز جنسيًا، ويعاني هذا الأمر منذ زمن بعيد، لذلك يسرف في تناول الخمرة، كما أنه يحاول أن يبدو أمام الآخرين بأنه طبيعي، كما أنه بالمقابل، يعطي المرأة التي يرتبط بها فيضًا من الحرية، بل يوفّر لها الأجواء المناسبة لإقامة علاقات جنسية مع رجال، في الغالب يكون له علاقة بهم، كما أنه يستغل زوجته، بإقامة علاقات عمل ومشاريع مع رجال أعمال يغريهم، بجلسات خمر خاصة، تكون زوجته الجارية الخادمة لهذا الرجل، فتقدِّم المشروب والمَزة ثم العشاء، وهي تتمايل غنجًا في ملابسها المثيرة وسلوكياتها التي توحي للآخر بأنها مستعدة لتلبية رغباته، فيما يدّعي "حازم" عدم انتباهه لما يحدث من قبل زوجته، حتى يحقق ما يريد مع فريسته، التي تكون دائمًا عبارة عن رجل ثري تافه،

يشتري لذته العابرة بأموال الدنيا كلها، فيما تتحول زوجته بمرور الوقت إلى عاهرة مبتذلة، وفي أوَّل صدمة صحو تراها تطلب منه الطلاق بلا أي شرط، المهم أن تتخلص من رذيلة وُضعت فيها.

أما "سهام" التي تعرَّف عليها في الكلية، فكانت زميلة له ولـ"رشيد" و"ناصر"، وكانت فتاة جميلة تتمتع بشخصية قوية وحضور طيب، اقترب منها "حازم" أيام كانوا طلبة، فلم تعره أي انتباه، ثم أنهى كلٌّ منهما الدراسة، فانصرفت هي إلى حياتها وعملها، ولم تشأ الأقدار لأن ترتبط برجل معين، حتى شاءت المصادفات والتقي بها "حازم" بعد سنوات من عبثه ورحلاته وزيجاته، وكان حينها قد طلّق للمرة الثالثة، وبعد سؤال وجواب، وتذكُر، لحقتها دعوة غداء، ثم سرعان ما صارت المشروع الجديد لارتباط "حازم"، وبعد مدة وجيزة صارت زوجة له، في البداية فوجئت بحازم وسلوكه، لكنها بعد ثلاث جولات أو أربع معه في تخطيطه لاصطياد فرائسه أدركت أسرار حياته، لكن الفأس وقع في الرأس كما يقولون، فهي قد مضت في حياتها الصاخبة معه، حتى التقت بزميلها، وصديق زوجها "ناصر" فشكت له ما تعانيه، وقرَّرت أن تمارس حياتها الجنسية معه، وليحدث ما يحدث، ثم تشعبت علاقاتها إثر وضعها من قبل "حازم" كطعم لصيد فرائسه، وكان هذا الطعم

في أكثر المرّات يُلتهم بسهولة، حتى تحوَّلت "سهام" الجميلة ذات الشخصية القوية إلى امرأة عاهرة... بل مبتذلة.

المهم، لم يرهق "حازم " تفكيره كثيرًا، وهو يشاهدها مع رجل غريب، ربما لديها عمل معين معه، أو ربما هو من أقربائها الذين لا يعرفهم، أو ربما هيأته ليكون فريسة قادمة، على طريقته هو، أليس هو معلمها الأول في هذا الطريق؟

إن "حازم الوافي" يجلس الآن إلى مائدته، في حانة سرية مبتكرة في أزقة البتاوين الخانقة، ومعه ثلاثة من الصعاليك، وقد تعاون معهم على اقتناء قنينتين من العرق المغشوش، كما جمعوا ما بحوزتهم جميعًا من مال ووضعوه في جيب "حازم" كي يتصرف هو بالأمور اللاحقة التي تتضمن المَزة، ووجبة الأكل الرخيصة، ثم وصول كلٍّ منهم إلى مكانه المرجو قبل حلول الظلام الموحش المخيف في المدينة، حيث تتأزم الأمور، ويدور الأمريكان بأسلحتهم وتهديدهم لكل من يمشي في الشارع متسترًا بالظلام، كما أن الليل يحتوي على لصوص وقتلة، وشرطة أيضًا، وكان طريق "حازم" وجوقته المنتخبة من أيّ مقهى يؤمها "حازم" باحثًا عن فرائس السُكْر الخاصة بعالمه حين يريد أن يختلي لأجوائه، بعيدًا عن تلك الفرائس التي تتطلب منه أناقة خاصة، وتهيئة من قبل "سهام" وتفاصيل أخرى للخروج بمكاسب كبيرة، أما فرائس المقاهي المنعزلة،

فهي لتجاوز يومه مع أشخاص حتى ملامحهم بسبب الإدمان بدت غريبة، وهم في الغالب من العاملين في "سوق الحرامية" حيث يبيعون ويشترون بالأشياء المسروقة، والمتنوعة، إذ تجد بضاعتهم، تتجاور فيها المواد الطبية مع مواد البناء، وكُتب الأدب مع الأحذية المستعملة، وهكذا... أستاذهم النازل عليهم من السماء "حازم الوافي" يجدون فيه متعة وفائدة وجليسًا أثيرًا، يُحدِّثهم عن قضايا لا يعرفونها، ويسكر معهم، ثم يمضون إلى مساكنهم مخترقين "ساحة الطيران" وجدارية فائق حسن والتماثيل المبعثرة، في المنطقة التي تتحوَّل في هذه الأيام وبعد مغيب الشمس مباشرة إلى حلبة كبرى للصراع، كلّ الموجودين فيها يتشاركون في هذا الصراع، لا بريء على الساحة فيها، ويكون السُكْر وغياب الوعي هما القائد الأوَّل لجوقة المبعثرين هنا، حيث يجد الرائي لمشهدهم بأن هناك مجموعات تتوزع على بقع غير منتظمة، وبعض هذه المجموعات وبسبب احتشاد الظلام تشعل نارًا من القمامة ليُضاء المكان وتحتسى الخمرة أو تتم طقوس تناول الحبوب المخدِّرة، وبالتالي فإن أفراد هذه المجموعات معرَّضون للحاجة الدائمة للمزيد من الخمرة والأكل ومتطلبات جلساتهم العجيبة، فيرون كلَّ مارٍ بقربهم صيدًا سهلاً لتسليبه، وأحيانًا الاضطرار تحت عامل غياب الوعي إلى ضربه وقتله بالسكاكين التي يحملونها دائمًا، وهم معرضون للضرب والاعتقال والقتل حين تصادفهم القوات الأميركية، التي تعثر في

الكثير من الأحيان على جثة حديثة القتل قريبة منهم، وهم الذين يتفرقون عند إحساسهم بقرب هذه القوات، فيختفون بين الأشجار والأعشاب الكثيفة المهملة، ليعودوا بعد أن تختفي القوات إلى دوائرهم، مع القمامة والفئران والقطط والكلاب السائبة، وواخزات البعوض والذباب.

يحبذ "حازم الوافي" أن ينتهي جماعته في الحانة المقترحة من شربهم قبل حلول الظلام، وأن يغادروا المكان بهدوء، وبدون مشاكل.

ورغم أن نوادي شرب الخمور والملاهي الليلية والحانات قد أغلقت في السنة الثالثة أو الرابعة على الحصار على العراق، إلا أن هناك بعض نوادي الاتحادات والمنظمات المهنية؛ ومنها اتحاد الأدباء والكُتَّاب قد فتحت أبوابها، وحصلت على ميزة غض النظر عنها من قبل السلطات، وقد فتحت هذه النوادي تحت دواع وأستره مبتكرة، وكان الجلساء من الأدباء والكُتَّاب وضيوفهم ، يضعون الأطعمة والمأكولات على الطاولة، فيما يضعون قناني الخمرة تحت الطاولة؛ ليتم تناولها بسرية مضحكة، وكان "حازم" يرافق صديقه "ناصر" للدخول إلى نادي اتحاد الأدباء والكُتَّاب في ساحة الأندلس، وكان يشارك في الحوارات الصاخبة، والجدل والأجواء التي يتذكر سحرها وحيويتها، وكان في تلك الأيام المنعمة بالأمن والاستقرار لا

يعود إلى شقته إلا بعد الثانية صباحًا، وهو "كالأسفنجة.. يعبُّ الخمر ولا يسكر" كما يقال.

أما الآن فلا ليل في مرتع "ألف ليلة وليلة" فالجلسات تبدأ مبكرة، وتنتهي مبكرة، وأحيانًا ينتخب "حازم" واحدًا من رفاقه الصعاليك، ليقضي معه وقتًا أطول فيصطحبه معه إلى الشقة بعد أن يأخذا ما يحتاجانه من العرق، مع ثلاث علب من البيرة المثلجة، كي تشاركهما "سهام" جلستهما، وبعد أن يصلا إلى الشقة، تفتح لهما "سهام" الباب وتكون متضايقة متململة، حتى يسحر عينيها بعلب البيرة المثلجة، عندها تشعر بالحيوية والمرح، فتهيئ لهما الأجواء، ويجلسون معًا، وبعد أن تلعب النشوة في رأسها، تبدأ بإطلاق الأغنيات العراقية الحزينة بصوتها المعبر ذي الشجن المحبب وتنزل دموع عينيها وهي تتفاعل مع الغناء، فيبكي "حازم" الذي يشعر بالحنين نحوها، ويضع رأسها على صدره، فيما تستمر هي بالغناء وسيل الدموع، ويستمر "حازم" بذرف الدموع والاستغراق في الشرب، أما جليسهما فيشعر بحشود الذكريات الجميلة التي تجتاحه، فتختلط مشاعره، ويتأمل مشهد الحزن الذي أمامه ليزداد سُكْرًا.

القرار المفاجئ لـ"حازم" بوجوب طلاق "سهام" ليس من باب الإحساس بالغيرة أو ثأرًا للشرف، بل هو لأسباب منها أن سُكَّان

العمارة بدءوا يثيرون اللغط حول سلوكيات زوجته، وثانيها أنه ينوي الخوض في مغامرة جديدة، لكنه قبل ذلك عليه أن يساوم "سهام" على موضوع المهر المؤجل، وسيبدأ من الآن التخطيط لذلك.

(١٥)

لقاء "رواء" بـ"سحر" في بيت"أم جابر" أثناء مجلس العزاء المقام على روح "أبي جابر"، أثار فيها رغبة جدية كبيرة لإكمال دراستها الجامعية، وبداية حياة جديدة مليئة بالطموح والأمل المقرون بحيوية ونشاط متجددين، لذلك فكَّرت "رواء" كثيرًا في طريقة تستطيع من خلالها إقناع أخويها بالموافقة على التقديم للدراسة المسائية، وخطَّطت لطرح الفكرة أيامًا طويلة كانت أمها معها في نأماتها، وهي ترى طلب ابنتها مشروعًا لأنه ذو فائدة مستقبلية، كما أنه يحقق لها حلمها ورغبتها في الحصول على الشهادة الجامعية التي هي بذكائها ومواظبتها جديرة بالحصول عليها.

وبدأت "رواء" خطة إقناع أخويها بالتدريج، فلم تجد صعوبة مع أخيها الصغير"عامر" بعد أن أعلمته بأن الدوام المسائي يبدأ في الواحدة ظهرًا وينتهي على أبعد تقدير في الرابعة مساءً بسبب الوضع الأمني الذي تمر به البلاد، ثم إن صديقتها "سحر" معها، فتذهبان معًا في سيارة تستأجرانها والسيارة لأحد أقارب "سحر" وهو رجل وقور تجاوز الخمسين، وهو متدين يخاف الله تعالى، وسيكون معهما في الذهاب والإياب، وهي فرصة طيبة لها لإكمال دراستها.

وبعد أن نضج الأمر واقتنع "عامر" به، صاروا "رواء وعامر وأمهما" في جبهة واحدة تسعى لإقناع "حسام" الذي لم يجد أمام آرائهم المتحمسة إلا الإصغاء والاستسلام لقرارهم والقبول بالفكرة طالما كانوا جميعًا متفقين!.

طارت "رواء" فرحًا حين اكتملت حلقة موافقة الأسرة على مشروعها، بموافقة "حسام" ومباركته الأمر واستعداده للوقوف معها حتى تتخرج، وأعدَّت "رواء" بهذه المناسبة وجبة عشاء فاخرة لهم احتفالاً وبهجة، صرفت عليه من مدخراتها مبلغًا جيدًا، وصاروا يمزحون معها ويتندرون، فقضوا ليلة احتفال سرقوا فيها البهجة من عيون الزمن الصعب وهم بين الشموع ومصابيح النفط، وفرحوا فرحًا حقيقيًا لفرح "رواء"، بينما شعرت هي؛ وهي تمضي لفراشها؛ بأن هذا اليوم هو يوم ولادتها الجديدة في عالم سيشرق بالأمل ويُنسيها كلَّ همومها ومتاعبها وقلقها، ولم تنم حتى ساعة متأخرة من الليل الذي ضجَّ بأزيز الرصاص المتبادل وهدير الدبابات البعيدة وأصوات الطائرات وزعيق سيارات الإسعاف وسيارات الشرطة، ولا أحد يعرف عما يدور في الليل من أسرار، لأن التجوال ممنوع، والأخبار والشائعات مقتصرة على أحداث النهار، وفي حدود المعلومات المتشابهة التي تبثها الفضائيات المتعددة، وهي تلتقط الأخبار بصيغة مشتركة حتى يدرك المتلقي أنها مستحصلة من مصدر واحد.

في الصباح أعدَّت "رواء" نفسها وصحبت أمها لزيارة صديقتها القديمة "سحر" في بيتها الواقع في ذات المحلة، كانت غاية الزيارة الاتفاق معها على كلِّ التفاصيل الخاصة بالتقديم للقبول بالدراسة المسائية. خرجت هي وأمها إلى الشارع العام، واستأجرتا سيارة صغيرة، رغم قرب المسافة إلا أن أمها لا تستطيع الذهاب سيرًا على قدميها، كذلك الهلع المستشري بين الجميع يجعل من الزيارات سريعة خاطفة، والذهاب من بيت إلى آخر؛ وبالذات من قبل النساء؛ أمرٌ فيه شيء من المغامرة، ولو كان هناك هاتف يعمل لانتفت الحاجة للزيارة ولتفاهمت "رواء" مع صديقتها من خلال الهاتف.

فوجئت "سحر" وهي تفتح الباب ويطالعها وجه صديقتها القديمة "رواء" مع أمها، وقد أخذتها بالأحضان وأغرقتها بالقُبل ونسيت كلٌّ منهما "أم رواء" التي بقيت صامتة بعينين دامعتين وهي تتأمل فرح لقاء الصديقة لصديقتها، وفجأة انتبهت "سحر" واعتذرت من "أم رواء" وعانقتها وقبَّلت يدها، ثم أدخلتهما إلى البيت الضيق الذي يقع بين بيوت متلاصقة مزدحمة في مكانٍ يعج بالفقراء، وتكاد أزقته تغرق بالمياه الثقيلة للمجاري، حيث وضع السُكَّان قِطعًا من الطابوق لانتقال المارة من مكانٍ إلى آخر.

جلست "رواء" بجانب "سحر" متقاربتين وقد أخذت كلٌّ منهما يدَّ الأخرى وبدأت "رواء" تهمس لصديقتها وعلى ملامحها علامات الفرح، حيث أخبرتها عن كيفية نسجها لخطة موافقة أهلها على إكمال دراستها الجامعية، وكان يبدو على "سحر" فرحٌ جليٌّ وارتياحٌ وهي تقبِّل صديقتها كلما سمعت منها إشارة طيبة لما آلت إليه أمورها مع أسرتها.

كانت أم سحر قد حضرت لغرفة الاستقبال بعد أن عدَّلت من وضعها ورحبت بضيفتيها ترحيبًا لائقًا، وانسحبت بهدوء إلى المطبخ كي تعدَّ مستلزمات الضيافة، وكانت تنوي إعداد فطور، لكنها اكتفت بالشاي بعد أن سمعت قسمًا قويًا من أم رواء على أن لا تعد أي شيء غير الشاي، لأنها مع ابنتها قد تناولتا فطورهما للتوّ، وهكذا أعدَّت "أم سحر" الشاي وجلبته إلى الجميع.

ولم تطل الزيارة، إذ بعد تناول الشاي كتبت "سحر" لصديقتها على ورقة صغيرة، طبيعة الأوراق والوثائق المطلوبة منها كي تهيئها بأسرع وقت ممكن للتقديم، ووعدتها بأنها ستساعدها في القبول وتجاوز كلّ العقبات، فإن لديها صديقة تعمل في إدارة الجامعة وهي ستسهل حتمًا الكثير من تفاصيل التقديم والقبول.

وقبل أن تغادر "رواء" وأمها، باغتت صديقتها بسؤال لم تتوقعه "سحر" حيث قالت لها : أنا أعرف بأن زوجك متمكن ماليًا،

فلماذا تقيمون في هذا المكان الضيق وفي هذا المكان المزدحم، ألا تؤمِّنون بيتًا أكثر مناسبة لكما؟

أجابتها "سحر" بمحبة وهدوء: في الواقع إننا نبني بيتًا في مكان آخر، وقد توقف البناء هذه الأيام بسبب ظروف البلاد، لكننا سنعاود إنجاز البيت، وما أن يكتمل حتى ندعوكِ لزيارتنا فيه إن شاء الله.

قالت لها "رواء" : وفقكم الله وحفظكم، وسنزوركم في بيتكم الجديد بإذن الله في أقرب وقت.

ثم شكرتها وخرجت مع أمها وهي تلقي تحية خاصة إلى أم سحر التي ودعتهما بحرارة وهي تود أن تتكرر الزيارة، وأن يبقيا في المرة القادمة وقتًا أطول ليتغدين معًا، ثم استوقفت "رواء" سيارة أجرة وعادت هي وأمها للبيت، لتبدأ فورًا إعداد ما مطلوب منها، وما ثبتته يد "سحر" لها في ورقة صغيرة.

ولم تجد "رواء" في شروط التقديم للقبول صعوبة، وكل ما عليها الآن هو أن ترسل أخاها "عامر" إلى مدرستها القريبة من البيت ليجلب لها وثيقة تخرجها في السادس الإعدادي، ثم يأخذ الوثيقة إلى مديرية تربية بغداد ـ الكرخ الواقعة قرب "مقهى البيروتي" الشهيرة، وأمام ملعب "نادي الزوراء" الكروي الجماهيري المعروف، لتصادق مديرية التربية على الوثيقة التي هي أهم وأصعب ما مطلوب في شروط القبول، أما

الأوراق والوثائق الأخرى فهي جاهزة وتحت يدها، وهي بطاقة الأحوال الشخصية وشهادة الجنسية العراقية والبطاقة التموينية وبطاقة السكن مع أربع صور شخصية ملوَّنة، وتوضع هذه المستمسكات في ملف ورقي وتُقدَّم إلى الكلية مع شيك مصدق من المصرف بمبلغ تسعين ألف دينار هو مبلغ أجور الدراسة المسائية، ثم تنتظر موعدًا للمقابلة، وبعدها تُعلن الأسماء التي تتمنى "رواء" أن يكون اسمها واحدًا منها، وكانت رغبتها أن تدرس التاريخ في كلية الآداب في جامعة بغداد، وسيبدأ الدوام الرسمي للعام المقبل في شهر تشرين أول القادم بالنسبة للمقبولين الجُدد في الكلية.

(١٦)

"أم جابر" الآن أرملة، ترتدي الثياب السود بعد أن فقدت زوجها، اعتكفت في البيت أيَّاما، ثم ملَّت هذا الاعتكاف، فبدأت بالخروج لقضاء مشاوير خاطفة تخصُّ البيت واحتياجاته، وقد شاهدها "رشيد" مغرية بسوادها الذي بدا داعرًا أكثر مما كانت عليه في ثيابها قبل الحداد، منحها مظهر الحزن المفتعل مسحة من الشحوب المثير والذبول الأنثوي الجذَّاب.

وفي إحدى المرَّات أخذ "رشيد"؛ دون أن يقصد؛ يسير خلفها، لأنه كان متوجهًا إلى رأس الزقاق الذي يسكنان فيه هو و"أم جابر" التي شعرت بخطواته خلفها، كما أحسَّت بلوعته، وهذا الشعور تولَّد عندها من فيض خبرتها في اصطياد الرجال ومعرفة المناطق الرخوة فيهم، لفَّت عباءتها بقوَّة على جسدها الرشيق، كي تعرض عليه مفاتن تفاصيل جسدها، هي لم تخطط لشيء مع "رشيد" حتى الآن، ربما تشتهيه، أو ربَّما تريد خلق دعابة لذيذة معه، شرط ألا تصل إلى ما وصل إليه "محمود" المنتحر، رحمه الله، معها، فهما "محمود ورشيد" كما ترى؛ يحملان سمات مشتركة عديدة، المهم هو، ارتباكه أمامها يفضح أشياء كثيرة، ولعثمته حين قدَّم إليها كلمات العزاء

المبتسرة وهو يلتقي بها مصادفة بعد أن رفعت مراسيم مجلس الفاتحة المقامة على روح زوجها المتوفى، كانت تلك اللعثمة واضحة الدلائل، لقد شعرت "نوال ـ أم جابر" بأن "رشيدًا" مغرم بها، وإلا ما الذي يجعله يبدو بهذا الارتباك كلما شاهدها؟ هكذا تساءلت مع نفسها وهي تبطئ السير كي يلحق "رشيد" بها، بينما أبطأ هو في خطواته كي يظل على مقربة منها من الخلف ليراقب تموّجات الزبد الأسود وهو يتكسّر على أمواج رغبته بها، ويعود إلى شاطئ حرمانه الذي وقف على جرفه طويلاً، هل حقًا هو يحبها، وماذا يريد منها بالضبط، هل يريد أن ينال منها وقتًا يُطفئ فيه نيران رغبته فيها، هي الجميلة الفاتنة المغرية ذات السنوات التي دنت من الأربعين، وذات السمعة السيئة التي اقترنت بانتحار الشاب "محمود"، ووفاة زوجها المفاجئة إثر سعي منه لإجباره على تحقيق إشباع شهوتها، وفوق هذا وذاك، هي أمٌّ لفتى مجنون وآخر وديع جدًا، وبنت ما زالت صغيرة لا تعرف أي شيء عما يحدث حولها؟.

قرَّر رشيد في لحظة هاربة، لا تفسير لها منه، أن يسير جنبًا إلى جنب مع "نوال"، وأن يتحدث معها أي حديث عابر، كي يشعر بغنج حروفها المتكسرة على زجاج قلبه، ويحقق فرحه المنثور على جبل أحلامها، ألقى عليها التحية بصوت لا يكاد يُسمع، وكأنه يهمس لها، وقد انسحبت بعض حروف جملة

التحية التي ألقاها عليها باضطراب، ابتسمت له، وشعرت بغرور أنها نجحت في اصطياده، قالت له بدلال طفولي باذخ: أهلاً برشيد، أهلاً بالأمير، أهلاً بجارنا المثقف، كيف حالك، وكيف ترى الدنيا في هذا الزمن الأهوج القبيح ؟، تصوّر يا رشيد أن الناس يتهمونني وكأنني قتلت زوجي المسكين بطريقةٍ ما، أنا أقتل أحدًا يا رشيد ؟، تصوّر أوصم بقسوة هذه التهمة الجارحة ؟ أجاب "رشيد" بأسلوب مدرسي آلي : إنهم غير محقّين، كان الأمر قضاءً وقدرًا، وأنا أعرف ماذا تقصدين بتهمة قتله ، ولكن يا أم جابر، إذا كان الأمر كما يذهبون إليه في تفسيراتهم فأنا في رأيي أنه انتحر قبل أن يحقق رغبة سعى إليها حتمًا !.

حين ذكر موضوع الانتحار تلعثمت "نوال" وبدأت تنظر إليه نظرة مختلفة ظانة أنه يرمي لأمر معين، يخص "محمود" مثلاً، لكنها تداركت الأمر وقالت بمسكنة : هل أنا أدفعه حقًا لينام معي؟.. لقد كان المرحوم دائم التعب والإجهاد والشكوى بسبب طبيعة عمله حمَّالاً في الشورجة، لذلك كان موته بسبب إجهاد في القلب، وليس بسببي، صدِّقني يا رشيد لم يمت بسبب مني، ثم نزلت من عينيها دموعٌ لا يدري "رشيد" حتى الآن لماذا أشفق عليها وصدَّق دموعها تلك، ولعن الناس وكلامهم حول تناول المرحوم زوجها حبوبًا مُنشطة للجنس، وهو يشكو مرضًا في القلب، كي يرضي ثورة شهوتها، ويطفئ نار جسدها؟

في نهاية الزقاق افترقا، هي ذهبت إلى فرن الصمون القريب، وهو ذهب باتجاه باص المصلحة الذي صار أهليّا، حيث التوجه إلى موعده مع صديقه "ناصر سامي".

وطيلة جلوس "رشيد" في باص المصلحة الكبير ذي اللون الأحمر الذي فرغت أكثر مقاعده، وهو يستعيد صورة "أم جابر" وكلماتها ودموعها وغنجها، وقال مع نفسه، هل من المعقول أن تكون هذه المرأة الرقيقة أمًّا وعاشقة وموسمًا في الآن ذاته؟ هل يجب عليه أن يصغي لسكاكين ألسنة الناس التي لا ترحم أحدًا ؟. لم يكن مصغيًا لما يدور حوله من ضجيج مفاجئ في الباص شبه الفارغ، تشاجر اثنان من الركاب، ثم تضاربا بالأيدي وهو لم ينظر إليهما حتى، كانت عيناه وذهنه وأعصابه خارج حدود الباص ترنو إلى البعيد غير المرئي، إنه مع "نوال" المدهشة في مكان أخضر جميل، يده تمسك بيدها، يغنيان ويتبادلان التعبير بكلمات الحب المحلّقة، من قال إنها أم.. من قال إنها مومس ؟ إنها عاشقة حسب، وحبيبها هو "رشيد".. هكذا أراد أن يرى الأشياء، هكذا، متناسيًا كلّ الأمور الجانبية الأخرى، متجاهلاً كلّ التفاصيل التي لا تمس جوهر رغبته العليا، مهملاً ماضيها المُبهم والحكايات التي نُسجت حول سيرتها، ومغامراتها التي لم تعد سرًّا بين أبناء محلته، تعلّق بعينيها، بشفتيها الورديتين وقد خلتا من أحمر الشفاه حدادًا

على زوجها، تعلَّق بجسدها البض وهو يصرخ ليجمع النقيضين حسنا وهما بياض جسدها المشرّب بالحمرة، وسواد ثيابها اللماع الرقيق، تلك الثياب التي خانت وظيفتها وفشلت في إخفاء مفاتن جسدها، فبقي الساقان على بوحهما، والصدر على وقاحة طيوره التي تريد التحليق دائمًا وهي تومئ للآخرين وتعلن تمردها على كل الأقفاص والأطر.

ظلَّ "رشيد" يحلم بـ"نوال"، حتى وصل الباص إلى نهاية رحلته فترجل منه مع الآخرين، وغاب في الزحام ليذهب إلى موعده.

كان "رشيد" يتحرَّق ألمًا وهو يشاهد مظاهر الخراب التي عمَّت عاصمة بلاده، شاهد في "ساحة الميدان" وتحديدًا في سوقها المُسمَّى بـ"سوق الحرامية" دوائر حكومية تفككت بالكامل وهي تُباع مقطعة الأوصال في هذا السوق العجيب، وبأبخس الأثمان المقدَّرة لها، رأى كلَّ شيءٍ عدا الجدران، التي لو استطاع اللصوص نقلها لنقلوها وباعوها طابوقة.. طابوقة، رأى كراسي المدراء وهي عرجاء أو مهشمة أو مخلوعة الزوايا، وشاهد مناضد خاصة بالاجتماعات، وأخرى لأغراض متنوعة، كما شاهد فايلات بلاستيكية وأخرى ورقية مع أوراق مستلة من معاملات، كما شاهد كُتبًا ثمينة تُعامَل وكأنها سلعٌ تافهة لا قيمة لها، وتُباع بأسعارٍ متدنيةٍ لا تُصدق، وهي قد سُرقت من المكتبة الفخمة في "بيت الحكمة" الذي تقع بنايته بجانب "وزارة الدفاع"

بين ساحة الميدان وضفاف نهر دجلة، وشاهد "رشيد" فيما شاهد، أجهزة طبية لا تُستخدم إلا في صالات المستشفيات، بل شاهد أسِّرة للمرضى وشراشف وبطانيا،ت بل شاهد كمامات وأحذية تخص صالات العمليات الجراحية، بل شاهد أدوية وعقاقير طبية وأجهزة لقياس ضغط الدم وقناني طبية تُباع في السوق أيضًا.

وفي جانب آخر من السوق شاهد جوازات سفر وبطاقات للأحوال المدنية وشهادات للجنسية العراقية، كانت تمثّل شكل إصدارها من دوائرها الخاصة، حيث يجلس الباعة، وأمامهم مناضد الكتابة والأختام اللازمة، وكأنهم في مكاتب الدوائر الرسمية، ويأتي الزبون ليصدر جواز سفر مثلاً، فهم، بعد أن يأخذوا منه مبلغًا جيدًا، يطلبون منه المعلومات اللازمة، ثم يدونها "الموظف" المختص، ويدلّه على الشخص الثاني الذي يوقعها، ثم يذهب إلى الشخص الثالث ليختمها ويعطيها للزبون، وهكذا يصدر جواز السفر، بلا تعقيدات ولا معوقات أمنية، دائرة كاملة في الهواء الطلق، أما كيف حصلت على العدد الهائل من النماذج الفارغة، وكيف قلَّد الأشخاص المزورون التواقيع والكتابة، بالقلم ذاته، وكذلك بذات الخط، وكأن الموظف المسئول الحقيقي، نقل عدّته إلى "سوق الحرامية" ليمنح الناس ما يحتاجون من أوراق رسمية تسهل متطلباتهم.. فهذا سؤال من الصعب الإجابة عليه إجابة واضحة محددة.

أشياء كثيرة أخرى رصدها "رشيد" في تجواله قبل وصوله إلى صديقه حسب موعدهما، هذا السوق العجيب الذي لخَّص خراب البلاد بمشاهد قد لا تُصدَّق بسهولة.

وفي طريقه تسرَّبت إلى مسامعه موسيقى أغنية "شمس الأصيل" للسيدة أم كلثوم، وكانت من المقهى الصغير المهمل الذي حمل اسمها وشهد روادًا كثيرين أدمنوا الجلوس فيه لسماع أغنياتها التي لا تنقطع طيلة انفتاح أبواب المقهى، الذي شهد الآن ندرة رواده، وإهماله الواضح المؤلم، فهذا المقهى مع مقاهٍ أخرى مثل الزهاوي وحسن عجمي والبرلمان، وصولاً إلى مقهى الشابندر الواقع في شارع المتنبي، هي من المعالم الهامة، والملامح التاريخية لمدخل شارع الرشيد. كان الجالسون في مقهى أم كلثوم كأنهم تماثيل شمعية صمتت من أجل التأمل والإصغاء إلى صوت البهجة والألم والحب الصافي، أما مقهى الزهاوي فقد ظل محتشدًا بكبار السن من شهود تقلبات الحياة في هذه المناطق المؤثرة، بل أدرك بعضهم العهد الملكي والمراحل التي تلته، وهذا البعض يتحدث عن سنوات الأربعينات والخمسينات بشيء من السلاسة وخصوبة الذاكرة المحتشدة بوجوه الملوك والرؤساء والشخصيات والأحداث والأسماء.

واصل "رشيد" سيره باتجاه مقهى "حسن عجمي" حيث موعده مع "ناصر سامي"، وحين وصل إلى المقهى، شاهد صديقه من

خلال زجاج المقهى الكبير الذي صمد بوجه الهزات، كان "ناصر" جالسًا، يحيطه الهدوء، ويتحلى بابتسامته الأزلية، وقد أمسك بسوط أركيلته، ووضع عينيه على مدخل المقهى وهو ينتظر إطلالة "رشيد" عليه حسب موعدهما الذي تأخر عنه "رشيد " قليلاً.

(١٧)

استيقظت "رواء" على نداء مفاجئ ملحاح من أمها، وهي تدعوها للنهوض سريعًا وتهيئة نفسها للذهاب مع صديقتها "سحر" إلى الكلية وهي قد جاءت في سيَّارة أجرة صغيرة مع سائقها الرجل الوقور الذي يمتّ لها بصلة قرابة وهو يُعتبر بمثابة الأب لها ولصديقتها.

فوجئت "رواء" ونهضت بسرعة، وهي تقول لأمها: لتدخل سحر إلى غرفة الاستقبال، ريثما أنتهي من تهيئة نفسي، فرَّدت أمها وهي مبتسمة: لقد دعوتها للدخول، لكنها قالت: "سأنتظر في السيارة كي نكسب الوقت، لأنني حين أدخل البيت تأخذنا الحكايات فنتأخر".

غسلتْ "رواء" وجهها، وغابت قليلاً في الحمام، لتظهر وهي ترتدي ثياب الخروج، ثم ودَّعت أمها على عجل وهي تُقبِّل جبينها والفرح بادٍ على ملامحها، لأن هذا اليوم سيكون له وقع خاص في حياتها، فهي ستدخل أخيرًا في أروقة الجامعة وتعيش حياة العلم التي طالما تمنَّتها وحلمتْ بها، هذه الحياة التي تعني الإطلالة على الثقافة والتعلم والحوار، ومن ثم الحصول على الشهادة الجامعية التي تؤهلها لوظيفة جيدة وهي التدريس؛ إذا كُتب لها النجاح في أربع سنوات من الدراسة والجهد والفائدة.

كانت "سحر" واقفة بمحاذاة باب منزل صديقتها، وحين تقابلتا أخذت الواحدة الأخرى بالأحضان، ثم جلستا في المقعد الخلفي للسيارة الصغيرة بعد أن ألقت "رواء" التحية على السائق واعتذرت منهما للتأخير، طلبت "سحر" من السائق الانطلاق فورًا إلى الكلية في الباب المعظَّم. وفي الطريق توقفت السيارة مع توقف السير المفاجئ بسبب مرور رتل من الهمرات والدبابات الأميركية، التي توقفت في الشارع فتوقفت معها حركة العالم كُلّه، وقد ابتعدتْ أقرب السيارات إلى الرتل بمسافة لا تقل عن مائة متر، هذه تعليماتهم، والذي يخالفها سيلاقي حتفه بنيرانهم المتأهبة دومًا للانطلاق.

وبسبب هذا التوقف تأخرت السيارة التي تقلّ الصديقتين إلى مبنى الجامعة، وبعد انتهاء توقف الرتل الأمريكي الذي انطلق ببطء؛ حدث زحام شديد وفوضى كبيرة أدَّت إلى توقف السيارات بسبب تداخل بعضها بالبعض الآخر وغلق الطرق بهذا الاشتباك والاستعجال بالمرور، وظلَّت السيارات متوقفة وهي تطلق زعيقها، في جو غابت فيه السلطات واختفى رجال المرور وغلب قانون القوة جميع القوانين الإنسانية الأخرى.

شعرت "رواء" بالضيق والسأم وكذلك صديقتها، التي لم تستغرب المشهد فهي قد تعرضت إليه أكثر من مرة، أما السائق الوقور فقد عبَّر عن مشاعره بانفعالات عبَّرت عن انزعاجه،

وهو يشتم ويسب بصوت منخفض، كي لا يبدو منفعلاً غاضبًا أمام قريبته وصديقتها اللتين ظلتا صامتتين يجتاحهما اليأس.

وأخيرًا، وبعد انتظار طويل، تحركت السيارة حتى وصلت إلى مبنى الجامعة، فترجَّلت الفتاتان منها، وحين شاهدت "رواء" لافتة الجامعة التي طالما تمنَّت الانتماء لها والعيش في أجوائها، حتى نسيت كلَّ سأمها وضيقها وما تعرضت له من استفزاز في الطريق، وتغيَّر مزاجها تغيرًا كاملاً، وصار رائقًا مستريحًا، حين شاهدت الطلاب والطالبات في رواح ومجيءٍ في أروقة كليات الجامعة، وهم كالعصافير يجلسون كلَّ فتاة مع شاب يتهامسان همسًا لا يقبل أي شك في أنه همس حب.

وقد حسدت "رواء" حسدًا بريئًا في سرِّها كل اثنين يجلسان معًا، وتذكرت "ماهر" حبيبها الذي أكلته الحرب دون أن تنعم منه بجلسات حب وهمس عشاق، ثم سرعان ما محت من مزاجها هذه الذكرى التي ستؤلمها حتمًا، وستبعدها عن أجواء تمنياتها وأحلامها، وفجأة قالت لصديقتها بمرح وهي تشير إلى عاشقين بالغا في الاقتراب من بعضهما : انظري يا سحر... يا لهما من رائعين، في هذا الظرف الخانق والمعقد وهما يعيشان بهذا الشكل، كأجمل عاشقين، غير مباليين بأي شيء حولهما سوى همسات الحب الذي بينهما، ترى ماذا يقول أحدهما للآخر وهما بهذا الانسجام وهذه الصورة البهية من الحب؟

وتجيب "سحر" ضاحكة: والله يا صديقتي لا أعرف ماذا يقولان، لأنني كما تعلمين لم أجلس هكذا طيلة حياتي، فأنا حتى في زواجي لم أحظ بمثل هذه اللقاءات مع زوجي وحبيبي، الذي تزوجته في أجواء في غاية الجدية، وسرعان ما جرفتنا الحياة بتفاصيلها ومتطلباتها، فكيف أعرف حديثهما؟

استدركت "رواء" وهي تعتذر من صديقتها بلطف : عفوًا أنا لا أقصد في سؤالي شيئًا يخصك يا صديقتي، نعم أنا أعرفك كما أعرف نفسي، ولكن سؤالي هو ماذا تتوقعين أن يكون حديثهما في مثل هذا الانسجام والتفاهم؟ طبعًا ستفترض كلٌّ منا ما هي طبيعة الحديث، ونوع العلاقة التي تربط بينهما.

وتمشت الصديقتان في أروقة الجامعة، حتى وصلتا إلى قسم التسجيل الخاص بالدراسة المسائية، فقدَّمت "رواء" أوراقها بعد أن تأكدت من اكتمالها، ثم شكرت موظفة التسجيل التي تجلس خلف نافذة صغيرة مفتوحة، وهي تتعامل بغاية اللطف مع المتقدمين والمتقدمات للدراسة المسائية، فرحت "رواء" لسرعة الإجراءات وسألت الموظفة عن الخطوة اللاحقة في القبول فأجابتها بأن أسماء المقبولين سوف تُعلن بعد أيام قليلة، وإنها تعتبر نفسها من الآن ضمن هذه الأسماء.. هكذا بشَّرتها موظفة التسجيل المحجبة النحيفة السمراء ذات الشكل المحبب بعمر لم يتجاوز الخامسة والعشرين، هكذا قدَّرت "رواء"

عمرها بعد أن انسحبت مع صديقتها من نافذة قسم التسجيل، للعودة إلى البيت مع السائق الوقور الذي سيعود إليهما بسيارته الصغيرة بعد نصف ساعة؛ حسب الموعد المتفق عليه، ولقضاء هذا الوقت، اقترحت "سحر" على صديقتها أن تجلسا في نادي طلبة كلية الآداب، لتناول الشاي، ومشاهدة الطلبة الشبان وهم يمرحون في فضاءات حرياتهم ناسين الخراب الذي يعصف خارج أجواء الجامعة، ومتناسين أنهم يقبعون في بلد يمرّ بأصعب ظرفٍ في تاريخه.

جلست "رواء" على كرسيٍّ خشبي ووضعت حقيبتها الصغيرة على كرسيّ آخر، لتحجزه لصديقتها "سحر" التي تركتها لتجلب قدحين من الشاي ثم تلحق بها في المكان الذي اختارته "رواء" قريبًا من باب النادي، فهي ما زالت خجولة ولم تعتد الأجواء الجامعية، التي بداخلها أنها كبرت عليها، وحين عادت سحر تحمل "صينية" صغيرة وضعت عليها قدحين من الشاي، أشارت على صديقتها أن تحمل حقيبتها وتنتقل إلى مكان آخر أشارت إليه بحركة من رأسها، لأن يديها، مشغولتان، الأولى بقدحي الشاي الموضوعين في الصينية، والثانية بحقيبتها السوداء الصغيرة، نهضت "رواء" من مكانها وذهبت فورًا للمكان الذي أشارت إليه "سحر" حيث المائدة أقل اتساخًا، والكراسي الفارغة أكثر، وجلستا صامتتين في المكان الجديد،

وهما تتطلعان للطلبة وهم يجتمعون كجوقات، بنات وبنين، وهم يمرحون بأصوات عالية وضحكات صاخبة مسموعة عن بعد، أو وهم يتناولون الأكلات الجاهزة والساندويتشات ويشربون المشروبات الغازية والعصائر والشاي والحليب، فيما يعلو من مكبرات الصوت التي تقع في زوايا صالة النادي أغنية من الأغنيات الشبابية الرديئة، ويكاد جميع الطلبة المتواجدين في صالة النادي لفرط تفاعلهم مع الأغنية أن يرقصوا طربا !.

فكّرت "رواء " وقالت في داخلها وهي تتأمل فوضى الشباب الذين يمرحون أمام نظرها : يا لخيبة الجيل الحالي الآتي على حبل مهرج، والراقص على أنغام البذاءة والسذاجة، يا لخيبتهم، وهم لا يعرفون شيئًا عن حقيقة ما يحدث من خراب، وطبيعة الحياة التي تتطلب منهم جدية في مواجهتها والتعامل معها بصورة أكثر عمقا، صارت أوقاتهم عبارة عن ألعاب ألكترونية، وأصبحت حيواتهم معزوفات جديدة في عالم صاخب، وتذكرت أنها قرأت أن أمجاد الثورات الكبرى قد خلقه الطلاب، حين كانوا أرضا خصبة للغرس السياسي والثوري الذي هدد حكومات وغيّر مصائر شعوب، لذلك كانت الدول تحسب حسابات خطيرة للتجمعات الطلابية الجامعية وتتعامل معها بحذر ودقة، فالطلبة كانوا يتمتعون بوعي عالٍ وحِّس خاص تجاه الفعل السياسي، ولهم مواقف ناضجة من الأحداث الوطنية

الكبرى، ولا يمكن للدولة في عهود الحيوية السياسية والفكرية ونشاطها المتميز أن تتجاهل الطلبة وهي تتخذ قراراتها في الشؤون الحساسة، لأنها ستواجه بمظاهرات شرسة واعتصامات لها وقعها الجماهيري المؤثر تأثيرًا مباشرًا.

حزنت "رواء" مع نفسها وهي تستذكر المآثر الطلابية التي قرأتْ عنها أو التي شهدتها، وتقارن بينها وبين تمايل جموع الطلبة الذين تراهم الآن أمامها، وبعد أن طال صمتها وشرودها باغتتها "سحر": أين ذهبتِ يا صديقتي؟

أجابت "رواء": لقد قارنتُ جيل الطلبة الحالي بالأجيال الطلابية السابقة التي صنعتْ الثورات وقدَّمت التضحيات ووقفتْ ضد دول وحكومات، ألم تلاحظي سلوك الطلبة الذين أمامنا، هل ترى هناك أنماط من الطلبة غير التي نشاهدها الآن؟.

أجابت "سحر": من المؤكد أن هناك مجموعات أخرى من الطلبة الذين يتميزون بوعي عميق وثقافة جيدة وبعضهم من أصحاب الرؤى السياسية الناضجة المتقدمة، وهم وإن كانوا قليلين إلا أنهم موجودون ولهم حضورهم القوي في كلِّ الفعاليات الجامعية.

قالت "رواء": الحمد لله الآن اطمأن قلبي.

شاهدت "سحر" السائق الوقور الذي سيقلهما بسيارته، كان يبحث بين الوجوه في النادي الطلابي، فأشارت إليه "سحر"

بيدها من بعيد، ونبَّهت "رواء" التي نهضت فورًا لتذهبا معًا باتجاهه، ثم غادروا النادي للعودة إلى البيت.

اهتزت السيارة هزة شديدة، أثارت الرعب والهلع لدى "رواء وسحر" ولم تستطعا السيطرة على نفسيهما فأخذتا بالصراخ والبكاء إثر الانفجار الهائل الذي شاهدتاه قريبًا من سيارتهما؛ إذ انفجرت سيارة مفخخة، وتناثرت نيرانها وقد احترقت السيارات المحاذية لها والقريبة منها، وانتشرت الجثث في الشارع، على مرأى من عيون "رواء وسحر" اللتين ظلتا تبكيان طويلاً بفزع لم تألفاه من قبل، لا سيما وهما تسمعان صرخات الجرحى وأنينهم، وظلَّت هذه اللحظات الغريبة مؤلمة منحوتة في الذاكرة، وقد ظلَّ السائق الوقور متماسكًا وهو يُهدِّئ من روع الفتاتين بحنوٍ أبوي، ولكن لم يفلح في سعيه بسهولة، وتعطَّل السير، وسُمعت أصوات سيارات الإسعاف وزعيق سيارات الشرطة وقبلهما جاءت سيارات الهمر الأميركية وقطعت الشارع.

فكَّر السائق الوقور بانقطاع الشارع الذي سيطول وقته حتمًا، وربما شهد الموقف المتوتر إطلاقات نارية ومواجهات بشكل ما وبالتالي سيُعرِّض نفسه والبنتين اللتين بذمته لخطر غير محسوب في هذه الأجواء المرتبكة والملتبسة في كل شيء، لذلك استحضر خبرته ومعرفته بالمكان وتدارك الأمر وتخلَّص

من السيَّارات القريبة والمحيطة به ونهج بسرعة طريقًا مختلفًا ليتخلص من الحصار الذي سيمتد طويلاً، حيث انحرف بسيارته على الرصيف، ثم سلك شارعًا ترابيًا، وهرب من الموقع الصاخب برشاقة محترف ماهر، ليعثر على طريق آخر أقل زحامًا، وقد تبعته في طريقه المكتشف هذا عشرات السيارات المحاصرة وبأسلوب الرتل، أي أن تمتد تلقائيًا بشريطٍ طويلٍ من السيارات المنفردة، وبعد مسيرٍ منحرفٍ عن الطريق الأساسي استطاع السائق الوقور بسيارته الصغيرة أن يصل إلى مبتغاه وأن يوصِّل البنتين إلى بيتيهما بأمان، وهما قد تلفعتا بالهلع والخوف مما عاشتاه من رعب الانفجار.

وصلت "رواء" إلى بيتها، وسرعان ما أجهشت بالبكاء الحارق ورمت نفسها في حضن أمها المسنة العليلة وهي تبكي، وسط استغراب أخويها وبكاء أمها الذي تبع نوبة بكاء "رواء" مباشرة، وبعد أن هدأت بدأت تقصّ عليهم حكاية ما حدث في طريق عودتها مع صديقتها، وكيف اهتزت السيارة التي تقلهما، كما وصفت لهم مشهد الجثث المحترقة والجرحى الذين يستغيثون.

حمدوا الله تعالى على سلامتها وسلامة صديقتها وسلامة السائق الوقور الذي تصرف بمهارة وحكمة وخبرة وأوصل السيارة بهذه السرعة القياسية في مثل هذه الظروف المعقدة،

وأعدَّت أمها الغداء، فيما مضت "رواء" للحمام كي تشعر بالطمأنينة والأمان تحت سطوة الماء المنساب، وكي تزيل عن جسدها ورأسها غبار الهموم والتعب والخوف الذي علق بها في رحلتها القصيرة ـ الطويلة للتسجيل في الجامعة.

(١٨)

ما من أحد بالمحلة يعرف بالضبط أين تذهب "نوال" أم جابر المعتوه، فهي تخرج من بيتها في الصباح الباكر، وهي تلتف بعباءتها، ولا تعود إلا وعناقيد الليل تُلوِّح بالهبوط، لقد حمَّلت نفسها بعد وفاة زوجها المسؤولية الكلية عن عائلتها، وإذا سُئِلت سؤالاً عابرًا من جاراتها عن عملها فإنها تجيب بانفعال: الحياة تتطلب مني أنا الأرملة المسئولة عن عائلة، العمل المضني كي أسدّ أفواه أبنائي دون أن أمد يدي لطلب المعونة من الناس، وأنتم تعرفون أن زوجي الراحل لم يترك لي غير الأبناء والهم والتعب... هكذا كانت تردد.

وكالمعتاد فقد نُسجت حول وضعها شائعات جديدة.

أما "جابر" ابنها المعتوه فقد ترك البيت بشكل نهائي، وأصبح هائمًا يدور في الطرقات وينام في مواقف الباصات التي أصبحت مكَّبات للأوساخ والنفايات، وكان يحصل على طعامه عن طريق التسوّل، ويتحدث في أكثر أوقاته بكلمات لا رابط بينها سوى ضحكاته الهستيرية، وتنتهي جُمَله غير المترابطة في الغالب بإشارات عصبية من يديه وملامح وجهه التي بدأت تُخيف الأطفال ويهربون منها، أو يطاردونه وهم يرمون عليه الحجارة، ويسخرون منه بترديد العبارات المعروفة عن المجانين.

الابن الثاني لـ"نوال" واسمه "نائل" فطن على الأشياء متأخرًا، وتبدو عليه اللامبالاة، وتراه كثير الصمت والعزلة، وقد دخل سنَّ مراهقته توًا، وهو متعثر بدراسته فقد رسب سنتين في الأول المتوسط، وكانت أمه في بعض الأحيان وحين تقدر عودتها من عملها ظهرًا، لا كما اعتادت، فهي تصطحبه في مشاويرها الطويلة، بعد أن يوصلا ابنتها "ورود" إلى مدرستها الابتدائية التي وصلت إلى الصف الأخير فيها، و"نائل" الذي يذهب مع أمه، ليعودا معًا في الظهيرة ليصطحبا أخته من مدرستها بعد أن تنهي دوامها، لا يتحدث كثيرًا، ولا يعرف شيئًا عن عمل أمه، سوى أنه يراها وهو معها تأخذه إلى بيت فخم، تضغط على زر الجرس الواقع أعلى الباب الخارجي المهيب، وبعد دقيقتين يخرج رجل سمين تجاوز الستين من عمره، وهو يدعوهما للدخول بابتسامة رقيقة وعلى درجة عالية من التهذيب، "نائل " يدرك أن هذا الرجل ثري جدًا، لكنه لا يصدِّق ذلك فهو مهذب لطيف متواضع، فيما حمل "نائل" فكرة أخرى عن الأغنياء فهم متكبرون متعالون ولا يلقون التحية والسلام على أيٍّ كان ولا يبتسمون إلا بصعوبة، إذن هذا الرجل لا ينتمي للصورة التي حملها عن الأغنياء في ذهنه، فهذا الرجل جمع الفضيلتين معًا، الثراء والتهذيب واللطف، حتى أن الابتسامة لم تفارق وجهه السمين منذ دخل "نائل" مع أمه منزله الفخم.

أما "نوال" فهي حالما تدخل البيت حتى تذهب بمفردها إلى إحدى الغرف بأسلوب يدل على أنها خبرت تفاصيل البيت وعرفت واجبات عملها وخطواته بدقة وآلية متعارف عليها، فتُعلّق عباءتها على شماعة ملابس فارغة، وتبدأ باستبدال ملابسها بملابس العمل التي جلبتها معها في كيس صغير أخفته تحت عباءتها، رأى "نائل" جسد أمه في ملابس"العمل" الفاضحة التي كشفت جزءًا من صدرها الأبيض واستدارتي نهديها المغريتين، وساقيها الممتلئتين، وبقي مبهوتًا وهو ينظر إلى مظهرها الجديد، مما جعلها تنتبه إليه وتوبخه: مالك يا بني، لماذا تنظر إليَّ هكذا وكأنك لم ترني من قبل؟

ثم دعته إلى الغرفة التي تتواجد فيها، وأخرجتْ له عددًا من المجلات الملونة، وقالت له: ابقَ هنا، وتفرَّج على هذه المجلات، ولا تخرج من باب هذه الغرفة أبدًا، لأن خروجك في البيت يعني تهديدي بالطرد من عملي، هل فهمت؟

أجابها بحزن: نعم يا أمي، لن أخرج من هنا مهما حصل !!

ثم أغلقت الباب ومضت هي إلى الرجل السمين، الذي يعيش وحيدًا في بيته الفخم هذا، عرف "نائل " فيما بعد بأن عائلة الرجل السمين هاجرت إلى دولة أخرى، فيما بقي هو في بغداد للعمل التجاري وإدارة مصالحه، وأنه لا يأتي إلى هذا البيت كثيرًا، فهو يخاف المفاجآت، ويحسب لظروف البلاد حسابًا

دقيقًا، فهو يقيم في أحد الفنادق الكبيرة، ويزور بيته هذا بين آونة وأخرى، حين يؤمن المكان جيدًا، ويؤكد مواعيده التي يريد أداءها، كما أن في البيت كاميرات للمراقبة.

الضحية الأكثر إيلامًا وتأثيرًا في بيت "أم جابر" هي ابنتها الوحيدة "ورود"؛ هذه البنت البريئة التي بدأت تلاحظ وهي على أعتاب سن المراهقة، سلوك أمها الذي سمعت عنه همساتٍ من زميلاتها في المدرسة الابتدائية القريبة من بيتهم، و"ورود" على العكس من أمها فهي هادئة قليلة الكلام متوسطة الجمال، بدأت تشبّ الآن، وانسابت أسئلتها الأنثوية التي لا تجد حتمًا من أمها مجالاً لسماعها، وكما أنها وبسبب ما تسمعه عنها، فهي قليلة الثقة بها، بل بدأ خيطٌ من الكراهية يتضخم لهذه الأم التي سببت إحراجًا لها من زميلاتها في المدرسة.، لذلك بقيت في صراع مع ذاتها في معرفة أمورها وفي موقفها من أمها.

والذي يشاهد "ورود" للمرة الأولى يظن أنها خرساء، فهي صامتة في أكثر الأحيان، كما أن ردودها على معظم الأسئلة يتم بإيماءة من رأسها أو يديها، لكنها كانت متفوقة في دراستها، وقد رمت كلَّ ثقلها واهتمامها على دروسها، لكي تتخلَّص بالمقام الأول من هموم البيت ومشاكله وكذلك لتصم أذنيها عن كلام الآخرين حول أمها، التي شعرت بكره ابنتها لها كرهًا واضحًا، لذلك حاولت مرارًا أن تتقرَّب منها لكن دون فائدة، فإن

"ورود" كانت تفتعل أي انشغال كي تبتعد عن أمها، التي اضطرت في أحد الأيام أن تجرَّها من يدها بقوّة وتصرخ بوجهها متسائلة وبشكل باغتَ "ورود":

• ورود !!... هل هناك بنت تكره أمها مثل كُرهك لي؟

أجابتها "ورود" بشيءٍ من الانفعال : لا !

• إذًا لماذا تكرهينني؟

ـ أنتِ واهمة، أنا لا أكرهك .

• أنا أشعر بذلك، كما أشعر بأنكِ، بعيدة عني، وفي كل يوم جديد تزدادين بعدًا.

ـ أنا لا أشعر هذا الشعور، ثم أنكِ مشغولة عني دائمًا.

• نهاري ينقضي بالعمل لأجلكم، وليلي كلُّه معكم، ماذا أفعل والحياة قاسية تتطلب عملاً مضنيًا كي نعيش بكرامة ولا نمد أيدينا بالحاجة لأحد.

ـ ليلك لراحتك من جهد النهار !.

• ماذا تعنين؟

ـ أعني أنتِ تتعبين في عمل يتحدث عنه الناس بسوء.

• دعهم يتحدثون، أنا أتعب لأُلبِّي حاجياتكم، فهل هناك أحد من هؤلاء الذين يتحدثون بسوء؛ طرق بابنا يومًا وسألنا مما نشكو؟ وماذا نحتاج، ونحن بلا رجل في البيت، وأنا أرملة وأخوكِ الكبير كما تعلمين مشرد في الطرقات وأنتِ وأخوكِ مازلتما صغارًا ؟.

- دعيني يا أمي، إن دراستي تتطلب مني جهدًا وتركيزًا فلا تتعبيني بهذه الأمور الشائكة، اتركيني لهمومي أرجوكِ.

ونهضتْ "ورود" وذهبت إلى الغرفة الأخرى وهي تبكي، وتركتْ أمها حزينة حائرة وهي تفكر بما وصلتْ إليه أمور الحديث عن سلوكها وعن سوء سمعتها التي صارت تهدد مصير بيتها الصغير، صحيح إنها تعمل بسرِّيَّة تامة، ولا أحد يعرف عن عملها شيئًا، ومن المؤكد أن الجميع يدرك أنها تعمل لإعالة أسرتها التي لا معيل لها غيرها، صحيح أن أسرتها الآن صغيرة مؤلفة منها ومن ابنها "نائل" وابنتها "ورود" وهما قنوعان ومطالبهما بسيطة لا تُرهق كاهل أي معيل، لكنها تبقى مسؤولية في رقبتها هي التي تشعر بوخزة ضمير قاسية سببها معرفتها الدقيقة بسرِّ جنون ابنها الكبير المشرد حاليًا بين الأزقة ولا تعرف عنه كيف ينام وماذا يأكل، الناس كلهم يتقولون عليها ويشيعون ما يتصورونه، فهم لا يعرفون عن عملها أي شيء، نعم إنها تستخدم جسدها، وتعرف جيدًا نقاط ضعف أيِّ رجل في العالم تجاه سحرها وفتنتها، لذلك هي تحصل على ما تريد أحيانًا بحركات إغراء تعتبرها ساذجة لا نتيجة فيها إلا فائدتها، كما إنها تلجأ في طلب حاجاتها الأخرى بإغواء المتلهفين بكشف قطعة من جسدها لتفتن عينيَّ من تُجابهه من الرجال ليسيل لعاب شهوته عليها، ومن ثم يعيش حلمًا أمده

لحظات وثمنه تحقيق مآربها من خلاله، وفي الحالات الأكثر جدية تمضي إلى الأسِرَّة مع طالبيها لتعطيهم الوقت الأحمر الذي هو نهاية كلِّ شيء، وهو مفتاح القول السيئ الذي ارتبط بسيرتها، هكذا، الناس يشاهدونها بكامل سحرها، تخرج من بيتها ملغومة بالأسرار التي تطفو على أرضية الفعل المفترض المبني على التوقعات المتفق عليها، ثم تصعد الباص الكبير، لتنطلق إلى صخب المدينة، ومن ثم إلى جهة مجهولة، لم يجرؤ أحد من المتطفلين على مراقبتها ومتابعة خطواتها التي تتلو وصولها إلى نهاية خط الباص الكبير، والحقيقة التي لا يتوقعها أحد، وتدركها هي شرَّ إدراك، إنها لم تحب أي رجل في حياتها، حتى زوجها الراحل، ومنتحرها الشاب، وحالمها الخجول، والرجال الذين ماءت تحت لهاثهم، كانت تجامل الجميع، وتضحك معهم وتغويهم بروحها المرحة ودمها الخفيف وجسدها اللدن وغناء عينيها ولمعانهما، إنها تسعى لإسقاط جميع الرجال تحت أقدامها، فهي لا تتورع عن كشف جزء مضيء من جسدها حين ترى ضرورة أن تُسقط رجل تراه يدَّعي الكياسة واللامبالاة معها، وحين تدرك صهيل ذكورته تجاهها، ترمي شِباكها عليه، وتجعله يلهث خلفها كالكلب، ثم تمضي عنه ضاحكة، متمردة باحثة عن فريسة أخرى، ربما أعجبتها دماثة خلق جارها "رشيد" الشاب الطيب المثقف، الذي يبدو أنه قليل التجارب أو معدومها مع المرأة، وهي تشعر بأنها أسقطته بالقاضية، حين

خرج عن إطار لا مبالاته بها، وبدأ يتلصص على طيورها المخبأة، لكنها تتأنى معه ولا تُسرف معه، كما أنها لا تنقطع عن غوايته، هي المعادلة التي لا تستطيع أداءها إلا النساء الخبيرات بالرجال من أمثالها، وهي التي تعيش هذه الأيام أوقاتًا مزعجة ثقيلة مع الرجل الثري السمين، العنين، الذي يشكو عجزًا في كل شيء إلا الإنفاق عليها بكرم لا يُضاهى، وهو يستخدم كلَّ الأساليب، كي يستطيعَ الإمساك بشيء من المتعة الجنسية معها، وهي التي تحرث في كل المناطق المستفزة في جسده، كي تثير فيها ولو برقًا من الاستجابة لكن عبثًا، فهو ينام أخر النهار مهزومًا مندحرًا خاسرا كلّ أمل في حروبه الصاخبة المنعزلة، التي سرق الوقت والجهد والمال لينزل إلى ساحتها، ثم ليسقط منهارًا، وفي أكثر الأوقات باكيًا، فيما هي تطوي بساط تقززها، وتجمع أدوات حرثها، وتأخذ ثمن عرق جبينها بالعملة الصعبة، لأنها ستحمل معها أسرارًا مزدوجة عن الرجل السمين الذي يظهر للناس بأرقى حلة وبابتسامة مرسومة بتكلف عجيب، ليقول لهم، سأعالج كل أزماتكم، وسأكون عند حسن ظنكم، في أخذ مصير البلاد من يده إلى برِّ الأمان، فيما تجلس "نوال" وهي تتأمل وجهه على شاشة التلفاز، تصرخ فيها عصافير جسدها، ويهتف رأسها لحواسها مذكرًا إياها بسقوطه البشع تحت قدميها ذات نهار منعزل، وأسلحة ذابلة، في معركة حمراء مضحكة مبكية في الآن ذاته.

وتخرج، في نهاية كل جولة، تذهب إلى الحمام تتقيأ ما بجوفها، وتغتسل من بقايا قذارة مسفوحة على جسدها، ثم تُعدّل من هيأتها، وتُخفي صخب حزنها، ثم تفتح الباب على ولدها "نائل" حين يكون معها ذلك اليوم تأمره بمغادرة الغرفة، والجلوس في صالة الاستقبال لانتظارها ريثما تستبدل ملابس العمل، ليذهبا إلى أخته المنتظرة في بوابة مدرستها، ثم يصطحبانها ويذهبان مشيًا على الأقدام إلى البيت وهم صامتون، وحين يدخلون المنزل، تمضي "ورود" راكضة نحو الغرفة الثانية في المنزل، يبدو عليها الانفعال والأسى والحزن، فيما تشعر أمها بوخزة من ندم وحقد شديد على العالم كله!.

(١٩)

حلَّ "تشرين أوَّل " سريعًا، وأحسَّت "رواء" بالإحراج في يومها الأوَّل للدوام في الكلية، وبدتْ غريبة عن مجريات الأحداث هنا وعن الأجواء الحيوية الصاخبة، وهي تنتظر بقلق وارتباك في حديقة الجامعة الكبيرة صديقتها "سحر"، حيث أصرَّ أخوها "عامر" أن يوصلها بنفسه في اليوم الأوَّل، أو في الأيَّام الأولى في دوامها ريثما يستقر الدوام وتستقر هي فيه، وتتفقان هي وصديقتها على أمر الاشتراك في سيارة واحدة تنقلهما من البيت إلى الجامعة وتعيدهما بعد انتهاء الحصص المقررة لكليهما إلى البيت، وربما اشتركتا في الاتفاق مع الرجل الوقور قريب "سحر" الذي أوصلهما يوم تقديم "رواء" للقبول.

ولأنها وصلت مبكرة في يومها الأول، فقد راودها شعور بالإحراج، وشعرت كأن الطلاب جميعًا ينظرون إليها، لأنها تكبرهم سنًا وتعتقد أن الوقت الآن لهم، للشباب اليافع المتلهف للحياة، هم الذين تراهم يسرحون ويمرحون بحيوية وانطلاق وبهجة، فيما ينزوي طلبة آخرون مشكّلين ثنائيات تزدان جمالاً لا يمكن لأيّ راءٍ لهم إلا أن يقول بأنهم عُشَّاق رائعون يتحدون كل شيء ويعيشون لحظاتهم المعبرة الرائعة.

تذكرت "رواء" تجربتها العاطفية الوحيدة والمريرة مع حبيبها الراحل "ماهر" وحزنت بصمت، وهي تستعيد مرحه وأمله الغريب في الحياة وهو يصف لها سحر مستقبلهما حين يكونان معا، وبينهما أبناؤهما الذين يتمنى أن يكونوا ستة؛ ثلاثة أولاد، وثلاث بنات، وكان يطلق ضحكاته المبتهجة بين آونة وأخرى، حتى تبخَّر كلُّ شيءٍ جميلٍ حين عاد بصندوق خشبي، يلفه الصمت والأسى.

ظلَّت وحدها مدة شعرت بها طويلة وثقيلة يخزها الانتظار وتلفها الحيرة، لأنها لا تعرف ماذا تفعل، فألهت نفسها حيث أخرجت من حقيبتها الصغيرة دفتر مذكراتها الأنيق، وبدأت تُلهي نفسها بكتابة عبارات هائمة لا هدف منها سوى الانشغال بشيءٍ ما، والابتعاد عن جوِّ الارتباك الذي شكَّل هالة حولها، هكذا تشعر..

وفجأة أطلَّت صديقتها بغتة وإذا بها تضع كفَّها على كتف "رواء" وتقول بمرح محبب: أعرف أنني تأخّرتُ عنكِ، يا حبيبتي، وأراكِ محرجة في أجواء لم تألفيها بعد، أسفي كلُّه على هذا التأخير غير المقصود.

فرحت "رواء" فرحًا شديدًا وهي تنهض وتعانق صديقتها وكأنها طفلة وجدت أمها التي غابت عنها مدة طويلة وتركتها وحيدة، وقد أثار لقاؤهما الصاخب بعض الشيء انتباه عدد من

الطلبة والطالبات القريبين منهم، وقد شعرت "سحر" بدموع صديقتها ونشيج بكائها المفاجئ الذي راودها إثر مشاعر مختلطة، أشفقت "سحر" على صديقتها ولم تنبس بأية كلمة حتى هدأت "رواء" وساد بينهما صمت قصير وهما تجلسان على مصطبة تقع في طرف من أطراف الحديقة الواسعة لجامعة بغداد.. ثم كسرت "سحر" الصمت بسؤالها المباغت لـ"رواء": هل شاهدتِ صفَّكِ، وهل عرفتِ بأية شُعبة وضعوا اسمكِ؟

أجابت "رواء" بشرود: أظن يا حبيبتي بأنني خطوتُ خطوة غير مناسبة، حين قرَّرتُ العودة إلى الدراسة وأنا بهذا العمر !!

قالت "سحر" بانفعال: ماذا تقولين يا رواء، أنتِ في ريعان شبابك، هناك طالبات بسن أمك، وسترين ذلك بنفسك، ومع ذلك إنهن يتصرفن وكأنهن بنات في الثامنة عشرة من أعمارهن، ما هذه الأفكار الغريبة التي تهيمن على ذهنك يا حبيبتي، الدراسة المسائية فرصة لنا لتحقيق أحلامنا وطموحاتنا الدراسية وتعويض ما فاتنا، هيا انهضي معي وضعي حدًّا لارتباكك، ولنبحث عن اسمك بين الأسماء في القوائم، كي نتأكد من شعبتك وتبدئي الدوام وتتعرفي على زملائك وزميلاتك هيا بنا.. لا تتكاسلي.. هيا.

ابتسمتْ "رواء" بشيء من الحزن، ونهضت مع صديقتها لتقصدا لوحة الإعلانات التي تجمّع حولها الطلبة والطالبات المقبولون حديثا، وهم يبحثون عن أسمائهم وشعبهم.

فرحتْ "رواء" وهي تقرأ اسمها الثلاثي في وسط قائمة حملت عنوانًا مكتوبًا بخطٍ كبير هو: طلاب السنة الأولى شعبة ـ ج ـ ، ومضت مع صديقتها التي فرحت هي الأخرى لفرحها.... ثم سألت بشيء من الغنج الطفولي : أين تقع شعبة الأول ـ ج ـ يا سحر؟

أجابت "سحر" بحيوية : سنبحث عنها، ونسأل، لتبدئي دوامك أيتها الشاطرة، ولتعودي إلى أمجادك في التفوق الدراسي.. هيا بنا. ومضت الصديقتان وهما تضحكان بمرح، ولأن "سحر" في عامها الثاني في الجامعة ولها معارف عديدون، فقد توقفت مرَّات وهي في الطريق إلى شُعب الكلية، وتبادلت التحايا مع زملائها وزميلاتها، كما أنها قدَّمت صديقتها "رواء" للتعارف مع عدد من زميلاتها، وقالت عنها إنها من أقرب وأغلى صديقاتها وهي مقبولة جديدة في الدراسة المسائية في الجامعة، حتى وصلتا إلى مجموعة من الصفوف وقد حمل كلٌّ صف لافتة صغيرة مكتوبًا عليها الصف والشعبة، وما أن وقعت أنظارهن على لافتة الصف الأول الشعبة الأول ـ ج ـ حتى شعرت "رواء" بنبضات قلبها تتسارع، وارتباكها يزداد، وكأنها ذاهبة للقاء حبيبها بعد فراق طويل...

قالت "سحر" : هاه.. رواء.. هذا صفُّك.. ادخليه فإنه سيكون بيتًا ثانيًا لكِ لمدة عام دراسيّ كامل.

قالت "رواء" بخجل : ادخلي قبلي يا سحر، فأنتِ تعرفين تدارك مثل هذه الأمور، فأنا أشعر بالحرج.. أرجوكِ..

دخلتْ "سحر" إلى الصف تتبعها "رواء" بخطوات مرتبكة، وقد ألقتا التحية على مجموعة من الطلبة والطالبات وهم يجلسون بدون انتظام متوزعين على الكراسي غير المرتبة في الشعبة، بسبب عدم بدء دوام طلبة السنة الأولى في الكلية بعد، وقالت "سحر" بلباقة : زملائي.. زميلاتي الأعزاء، أقدِّم لكم زميلتكم المقبولة معكم في هذه الشعبة صديقتي وأختي "رواء"، ثم قالت ممازحة، ستكون أشطركم بالتأكيد، أما أنا فزميلتكم سحر في السنة الثانية في كلية التربية.

أجابوا بمرح إجابات مُرحِبَّة مرحة متنوعة.. أهلاً برواء الشاطرة.. أهلاً بزميلتنا.. يا مرحبًا بأختنا، ثم قال أحد الطلبة مداعبًا: ستكون شُعبتنا أجمل الشُعب لأن فيها أحسن الفتيات.

أجابت "رواء" بخجل وقد احمرَّ وجهها: شكرًا لكم جميعًا.. أتمنى لكم السلامة والخير والنجاح.. لا تصدِّقوا كلام صديقتي سحر، فأنا لن أكون أشطركم حتمًا، بل أنا بينكم أتعلَّم وأحاول النجاح.

- أهلاً وسهلاً بكِ.. قالت لها إحدى الطالبات التي يبدو عليها وكأنها تجاوزت الأربعين من عمرها وجدت "رواء" بابًا للحديث معها، فكانت رزنة هادئة وخمَّنت أنها ستكون قريبة لها في

وضعها الجديد ضمن مجموعة طلبة وطالبات هذه الشُعبة، قالت "رواء" متسائلة: هل هناك دوام هذا اليوم؟

أجابت "هدى": لا.. فنحن نجلس هنا جميعًا لنتأكد من أسمائنا وشعبنا، ولنتعارف على بعضنا البعض أيضًا، أنا هدى من بغداد من محلة الدورة.

أجابت "رواء": وأنا رواء من بغداد من محلة الحرية.

• أهلاً وسهلاً.

- أهلا وسهلاً.

عرفت "رواء" زميلتها "هدى" بينما الزملاء والزميلات الآخرون، فقد عرفوا اسم "رواء" من خلال تقديم صديقتها "سحر" لهم، لكنها لم تحفظ أسماءهم التي ألقوها على مسامعها على عجل، أما "سحر" فقد وقفت خارج الشعبة منتظرة ما تصل إليه "رواء" مع زميلاتها وزملائها.

قالت "رواء" لزميلتها "هدى": هل أستطيع الخروج إلى البيت الآن، فأنا قد شاهدت اسمي وعرفت شعبتي؟

قالت "هدى": نعم.. بكل تأكيد.. وبإمكانك أن تداومي في الأسبوع القادم، هكذا اتفقنا جميعًا، رافقتكِ السلامة يا رواء.

قالت "رواء": شكرًا لكِ يا هدى، وفقكِ الله، أراكِ بخير، مع السلامة.

خرجت "رواء" من شُعبتها، ووجدت صديقتها "سحر" بانتظارها، فخرجتا معًا إلى حديقة الجامعة، فاستأذنت "سحر" من صديقتها لارتباطها بموعد محاضرة، فيما شعرت "رواء" وهي تشكرها وتودعها، بحاجة إلى أن تتمشى وحيدة كي تستنشق هواءً جديدًا كانت تسعى إليه، بعد شيء من الاختناق أصابها بشكل مفاجئ، لقد اختلطت عندها المشاعر وهي تدخل الصف، هي فرحة حزينة، أو حزينة فرحة، المهم صارت عندها أجندة جديدة، وأصبحت حياتها من الآن مليئة بانشغال مفيد مثمر وأمل جديد متفتح وطموح لا يحدّ، الدراسة الجامعية حلمها، وإن جاءت متأخرة، إلا أنها تشعر الآن وكأنها وُلدت من جديد. وهكذا وجدت "رواء" نفسها وهي تخرج من مبنى الجامعة وتقطع الطريق بينه وبين الشارع العام وهي محاطة بعزلة شرود ذهني اجتاحها، ولم تنتبه لأيّ شيء في طريقها سوى السير بأمان على الرصيف حتى وصلت إلى أخيها "عامر" المنتظر تحت مظلة الباص، الذي لن يأتي حتمًا، وما أن التقيا حتى خرجت من شرودها وألقت التحية عليه، ثم سرعان ما أشار إلى سيارة أجرة صغيرة، ليصعدا بها وتقلهما إلى المنزل، جلس "عامر" بجانب السائق في المقعد الأمامي، وجلست "رواء" في المقعد الخلفي، لكن السيارة توقفت في الطريق الذي أغلق بشكل مفاجئ!، ولا أحد يعلم ما الأمر، وكلُّ الذي شاهدوه هو أن عددًا من سيارات "الهمر" الأميركية

وعددًا من "قوات الحرس الوطني" قد قطعوا الطريق، بلا إيضاحات ولا سماح لإطلاق أية أسئلة، وعلى جميع المنتظرين أما التوقف والصبر والتحمل لساعات لا أحد يعرف بالضبط مداها، أو البحث عن طرق أخرى للوصول إلى مبتغياتهم.

بدت الحيرة على سائق سيارة الأجرة الصغيرة التي تقل "رواء" القلقة المرتبكة وأخاها الذي بدأت إمارات الغضب تتضح في ملامحه، تلفَّت السائق يمينًا ويسارًا، باحثًا عن منفذ بين السيارات المتزاحمة للخروج من مأزق الانتظار هذا، وأشار بيده لعدد من السيارات التي خلفه، فلم يتلقَ أي رد فعل، وتبيّن من المشاة الذين مرَّوا على السيارات الأميركية الواقفة والقوات المتحفزة بأن سبب غلق الطريق هو وجود جثة رجل تبدو عليه الأهمية، هذه الجثة ملقاة قرب الجسر الحديدي، وأنهم يسعون لنقلها إلى الطب العدلي، الذي تشير المعلومات إلى أن ثلاجات الموتى فيه قد امتلأت بجثث مجهولة الهوية، بل أن ساحات مبنى الطب العدلي مُلئت بالجثث التي تفسخت، وصارت رائحة الموتى تدرك الأنوف على بعد مخيف من مبنى الطب العدلي، بسبب اكتظاظ الثلاجات وامتلاء الساحات وغياب التيار الكهربائي، كما تشير المعلومات إلى أن هناك متعهدين لدفن الموتى تعاقدوا مع وزارة الصحة العراقية لدفن الجثث مجهولة الهوية في مقابر بعيدة عن السكان، وذلك ليومين في الأسبوع، وهما على ما نظن الاثنين والأربعاء، ومع هذا ظلت

الجثث تتزايد يومًا بعد يوم، وهكذا أصبح مبنى الطب العدلي عبارة عن كتلة واسعة من عفن وجثث منسية تتفسخ، مع موظفين وأطباء ومضمدين لا يمكن تخيّل قدراتهم في التحمّل والتعامل مع الجثث والباحثين عن أولادهم أو آبائهم أو ذويهم في هذه اللوحة السريالية المثيرة، علمًا أن الأطباء والمعنيين يصرخون بأعلى أصواتهم حول ما تمر به هذه البقعة من الأرض من إهمال وظرف لا إنساني، لم يشهده العالم كلّه على مرّ كوارثه وحروبه مآسيه ومجازره.

ولا خيار أمام "رواء" وأخيها والسائق الذي يقلّهما إلا الانتظار، وظلوا سجناء سيارتهم لمدة ساعتين ونصف، بعدها انطلقت السيارات مرة واحدة بجنون كأنه سباق، ليحصل كما في كل حالة قطع طريق ارتباك وفوضى ومشاحنات ومشاجرات تصل إلى الاشتباك بالأيدي، أدَّى هذا الأمر إلى ضياع ساعة أخرى، ثم انفرجت الأمور، بعد أن تكاسلت الشمس وبدأت تهم بالغروب، لتصل "رواء" مع أخيها إلى البيت بعد أن نزل الظلام، وهما سأمان يجتاحهما أسى عميق.

دخلت "رواء" غرفتها، وعندما تحررت من ملابسها الرسمية وارتدت ملابس البيت، شعرت بحاجة إلى الاسترخاء والنوم والاستعداد الحقيقي لحياتها الطلابية الجديدة، حياة العلم والدراسة والاجتهاد، والحيوية المطلوبة في كل شيء، استلقت على سريرها، ونامت بعمق نومًا لم تذق مثله منذ سنوات طويلة.

(٢٠)

لم تحسب "نوال" لخطواتها اليومية حسابًا أمنيًا !.. ذلك أنها تعرف مدى جاذبيتها للرجال وجُلُّ ما يفعلونه أنهم يأكلونها بنظراتهم الشرهة طيلة مسافة تنقلاتها في طريقها بين بيتها والبيت الذي تمضي إليه لأداء عملها، وهذا الشعور بالإعجاب والرغبة من قِبل الرجال تجاهها يزيدها غنجًا وغرورًا وإحساسًا بجمالها الباذخ الذي تفوَّقت فيه على النساء.. صحيح أن بعض الشباب المراهقين الذين يطفح الشبق من عيونهم، كانوا يتعدّون حدود النظرات ويسمعونها كلمات غزل؛ وهي في الغالب كلمات غزل جميلة أو قصائد من شعر الحب، وفي بعض الأحيان تخرج بعض العبارات عن حدود اللياقة، ومع هذا لم تتأثر "نوال" بهذه الجلبة حولها والتي تراها طبيعية وتواجهها بابتسامة رقيقة أو بصمت محايد، وفي كلِّ حياتها منذ أن صرخت أنوثتها في تفاصيل جسدها وحتى هذه اللحظة كانت تتلقى هذه الأمور بشكل اعتادت عليه.

لم تضع "نوال" في حساباتها أنها تتعرض لانتهاك عنيف واغتصاب غريب من خلال ثلاثة شبان طائشين يعترضون طريقها بعد أن راقبوا مفردات ومواعيد خروجها من منزلها، ووقوفها في رأس الزقاق الذي قلما تلتقي فيه بأحد من

معارفها، الذي تتبادل معه عبارات التحية والمجاملة ثم تصعد الباص الكبير وتغيب حتى خصلات الليل الأولى تاركة في بيتها الصغير ابنًا وبنتا ضعيفين، ربما تجهز لهما الغذاء، وتوصي الجيران بهما ثم تذهب، وفي أيام الدوام المدرسي، توصلهما كلاً إلى مدرسته، ثم إما أن تعود إليهما في الظهيرة أو تظل حتى المساء ليعودا إلى البيت تباعًا، بعد أن تُؤمِّن لهما مفتاح المنزل في بيت الجيران، وعندما لا يرغب "نائل " بالدوام في مدرسته فإنها لا تقسو عليه فهو ما زال صغيرًا، فإنها تأخذه معها إلى "عملها" بعد أن يوصلا "ورود" إلى مدرستها... هذه تفاصيل حياتها، فـ"جابر" المعتوه ابنها الأكبر خارج حسابات الجميع.

المهم، يوم خرجت وحدها صباحًا، بعد أن تركت ولدها وابنتها نائمين في البيت وتوقفت في طريقها سيَّارة زرقاء صغيرة حديثة، وفتح أحد الشباب الثلاثة الذين يستقلونها الباب الخلفي للسيارة وشهر مسدسًا بوجه "نوال" آمرًا إياها بالسكوت والصعود الفوري وإلا فرَّغ الرصاصات في رأسها وألقاها في إحدى المزابل المنتشرة في المدينة.

لم تجد "نوال" أمام هذا الموقف المرعب سوى الانصياع والصعود لتجد نفسها جالسة بين شابين في المقعد الخلفي للسيارة التي انطلقت بسرعة جنونية مغادرة المكان.

وبعد دقائق صمت رهيب، نظر إليها السائق الذي يجلس وحيدًا في المقعد الأمامي ومن خلال المرآة التي أمامه قال لها وهو يبتسم بخبث، لا تخافي يا حلوة، إننا معجبون بكِ، ونريد أن نقيم حفلة نتعرَّف فيها عليكِ أكثر، لا تخافي، نحن نعتذر لأسلوبنا "الشبابي" في التعامل معكِ، ولكن ماذا نفعل غير ذلك لنتعارف؟!.. "نوال" ما زالت منذهلة لا تعرف ماذا تفعل، ولا كيف تتصرَّف، ولا بمن تستنجد، ورغم تجاربها السرّية العديدة مع الرجال، حيث حدث أكثر من مرة أن مارست الجنس مع أكثر من رجل في جلسة واحدة، وعلى سرير واحد تتابعوا عليها، إلا أن هذه المرَّة فوجئت بطريقة التعامل معها، وهي ما زالت مهددة، لا تعرف عن مصيرها في الساعات القادمة شيئًا، فها هي تُخطف من شارع يسيل فيه الخوف والصمت، وها هي بين شابين، يحملان السلاح، يبدو عليهما التهور، وأمامها السائق المجنون الذي بدأ معها كلامًا وقحًا مُغلفًا باللطف المصطنع، ها هي لا تدري إلى أيّ مكان تمضي، وقد فاجأها الشاب الذي يجلس في الجانب البعيد عن الباب الذي أرغمت على الصعود منه، حيث وضع يده على فخذها الأيسر وقال لها بعهرٍ سافر : سنعجبك جدًا... ونُرضيكِ أيضًا !.

عندها بكت "نوال" وأطلقت كلمات مخنوقة غير واضحة تتشتت حروفها بين أنينها وبكائها.

قال لها الشاب الذي يجلس إلى جانبها والذي هددها بمسدسه وأمرها بمرافقتهم، وقد وضع يده اليسرى على نهدها ضاغطًا إياه بقسوة : لا تبكي.. ولا تنفعلي، وكوني مسترخية معنا، إنها ساعة أو ساعتان، نقضيها معًا، ونعطيكِ ما تطلبين، ثم نوصلكِ إلى المكان الذي تريدين الوصول إليه، ساعة أو ساعتان، يا نوال الحلوة!.

شعرت بسقوط كلّ الأشياء وهي تسمع اسمها على لسان واحد منهم، شعرت بزجاج يتكسّر في صدرها، إنهم يعرفونها، وما عباراتهم الداعرة ولمساتهم الشيقة سوى دلائل على ما يكنونه لها، وما سمعوه عنها، بل عرفوه أيضًا، لأنهم اقتحموا عالمها بأسلوب ينم عن مراقبة دقيقة لخطواتها، هي الآن بينهم، تطالع ذاتها في مرآة النفس وهي تحتقرها، بصقت على روحها الواطئة بينها وبين نفسها، ها هي مبتذلة ساعية مع ثلاثة شبان إلى إطفاء رغباتهم مقابل ثمن لمَّحوا لها به، هكذا هي إذن، فعلام الغرور والزهو؟

واستجمعت في لحظات صمت كلّ ما حصل لها في حياتها من أول براعمها، حتى رحيل زوجها المسكين، ضحيتها، هي التي تعرف السبب الحقيقي لموته، ومرَّت خلال شريط استعراضها لمفاصل حياتها ملامح ضحايا عهرها.

ها هي، "نوال" الحلوة المشتهاة، بين ثلاثة وحوش استعدت لافتراسها شرَّ افتراس، لا تدري أين سيكون ميدان افتراسها، ولا تدري كيف يريدون إفراغ شهواتهم معها، لا تدري، ربما بعد أن ينطفئوا منها سيقتلونها، فهي عند إذ ستكون عبئًا عليهم، قد يتوقعون منها شرًّا لاحقًا فيتخلصون منها، وتصبح ليس أكثر من رقم بين الجثث مجهولة الهوية، التي لا تعني سوى نبأ عابر في نشرة أخبار صار الإصغاء إليها مُملاً مزعجًا.

وبعد مسير جنوني من قِبل سائق متهور، وسيارة حديثة، توقفت السيارة أمام باب إحدى العمارات السكنية شبه المهجورة، وترَّجل منها السائق، ثم الشاب الذي شهر سلاحًا والذي يجلس إلى يمين "نوال"، ثم نزلت هي ليتبعها الشاب الثالث، وقد اقتادوا الفريسة عبر البوَّابة المهملة، إلى السلّم الحجري، الذي تعرَّض للهدم في أكثر من موضع فيه، أخبروها ببرود أن المصعد عاطل، وحتى لو كان يعمل فإنهم يصعدون عن طريق السلالم الحجرية، لأنهم لا يثقون بالمصعد الذي يعتمد على الكهرباء التي لا تأتي إلا قليلاً، وهذا القليل مهدد دائمًا بأن يعطي ضحية ستظل محشورة في قفص المصعد، ثم أن شقتهم في الطابق الثاني، يعني لا ترهق شبابًا مثلهم كثيرًا.
وهكذا صعد الأربعة يتقدمهم سائقهم، الذي ما أن اقترب من باب شقتهم حتى أخرج باقة المفاتيح، وتقصد أن يظهر صوتًا منها

ينم عن فرحه، ثم فتح الباب، ودخل قبلهم، وتناوب الثلاثة الآخرون على الدخول تتقدمهم فريستهم "نوال" التي لاحظت تسلل النور الخافت إلى أنظارها من خلال المصابيح النفطية "الفوانيس" والشموع التي بدأ بإشعالها السائق الذي دخل برشاقة إلى الشقة قبلهم جميعًا.

قال أحد الشابين الذين بقيا مع "نوال": اجلسي يا نوال الحلوة، هنا في هذه الصالة ذات الضوء الرومانسي الخافت سنحتفل، بجمالك وسحرك ودهائك أيضًا.

جلست "نوال" وهي محبطة حزينة على أريكة باهتة اللون، وهي إحدى أريكتين في الصالة الصغيرة، التي تتواجد فيها إلى جانب الأريكتين ثلاثة كراس من ذات الطقم المستعمل، وفي وسط الصالة منضدة مستطيلة.

سحب الشاب الثاني عباءة نوال بوقاحة، ليكشف عن ثوب بنفسجي لمَّاع، ثم دفعها بيده ليجلسها على الأريكة وهو يقول لها: هاقد كسرت حزنك على زوجك الذي قتلتِه بجنون شهوتك!

انهارت "نوال" مستسلمة، وبدت فاقدة لأيّ إرادة في اتخاذ أيّ قرار يخلّصها من الفخ الذي وقعت في شباكه، وانتظرت اللحظات المجنونة القادمة التي افتتحها الشاب الأول، سائق السيارة، الذي جلب بمرح قنينة الويسكي، وما أن رآها الشابان الآخران حتى مضيا إلى المطبخ بمرح كي يجلبا المفردات

الأخرى لاحتفالهم باصطياد جسد "نوال"، حيث جلبوا تِباعًا قناني "البيرة" مع أطباق المَزة، والأقداح الفارغة، ثم فتح الشاب الذي هددها بمسدسه قنينة الويسكي، وبدأ يسكب منها بقدحي زميليه، ثم سكب في قدحه، وسأل نوال : ماذا تشرب حلوتنا، بيرة أم ويسكي؟.. ردَّت عليه "نوال" بأسى وبرود : لا أشرب شيئًا، فأنا في طريقي للعمل! ضحك الشباب الثلاثة، ثم قال لها الشاب السائق: عمل؟... نحن نعلم بأن عملك يتطلب أن تكوني منتشية بالخمرة اللذيذة التي تجعلك طائرة كالحمامة، اشربي بيرة فهي تناسب طراوة جسدك يا حلوة !... المهم خذي راحتك، لا نريد أن نضغط عليكِ.

ثم حمل الثلاثة كؤوسهم، وقال الشاب صاحب المسدس: بصحة فاتنتنا نوال. ثم قرعوا كؤوسهم وبدءوا رحلة الانتشاء في الضوء الخافت، الذي جعل ملامحهم تبدو مخيفة أثارت الرعب والهلع في "نوال" التي تنتظر دورها في الاحتساء المجنون، في هذا الجو الذي لا مفر من تحمّله، والصبر عليه حتى النهاية التي تخشاها "نوال" خشية حقيقية، وبدأت تفكر ببيتها وولدها وابنتها، ترى أين يذهبان حين يحصل لها مكروه، وتُلقى جثة باردة، وربما مشوهة في واحدة من مزابل المدينة؟

بدأت الخمرة تجري في عروق الشبان، وقال أحدهم بعينين لامعتين: هيا يا حلوة، ارقصي لنا، فأنا أريد مشاهدة جسدك الرشيق وهو يلتوي طربًا وشهوة، شعرت "نوال" بأنها إذا لم

تلبِ هذا الطلب من هذا الشاب الأهوج الثمل فأنها ستعرِّض نفسها حتمًا لمكروه من نوع ما، فنهضت، وما أن شرعت بالرقص في الفسحة الصغيرة في الصالة حتى قال لها أحد الشبان الثلاثة: لا، ليس هكذا، نريدكِ أن تخلعي ثوبك وترقصي بملابسك الداخلية فقط، هكذا الرقص بالنسبة لكِ يا حلوة.

خلعت "نوال" ثوبها البنفسجي بكل استسلام، وبدت بثوبها الداخلي الشفاف، الذي أظهر جسدها بكل تفاصيله المغرية وبدت بينهم في الضوء الخافت وكأنها قطعة ضوء تتلوى، وشعر الثلاثة بالذهول والشهوة معًا، فيما أخذت "نوال" ترقص بانفعال، ثم هدأت تدريجيًا، وأخذت رقصتها بُعْدًا تعبيريًا عالي البوح، فقد استسلمت لطقوس إثمها ومضت في الطريق إلى اعتلاء صهوة الرغبة، وهي تدرك تمامًا أنها ستتموج بعد قليل تحت هياج مجنون، لا يمكن لها إلا أن تنسجم معه، كي تجتاز عتبة قدر لا مفر من مواجهته بكل حواسِّها، هو شعورٌ يتألف من مزيج من الإحباط والندم والمضي في الطريق الذي خطته لذاتها منذ الرعشة الأولى واستنطاق لذتها في الخفاء.

وبعد تصاعد البوح منها، سحبها أحد الشبان الثلاثة من يدها، وبدت خفيفة وهي تسقط في حضنه، ثم حملها، وهو يضحك، ومضى بها إلى غرفة النوم التي خلت إلا من ضوء شمعة خجول، ورماها على السرير، وبدأ يخلع ملابسه باستعجال، وخلع عنها ثوبها الداخلي الشفاف، وما تبقى من قماش يغلف

جسدها الصارخ، وألقى نفسه المتوثبة عليها، وهو يلهث، فيما تفوح من فمه رائحة الخمر المختلطة بأنفاسه الكريهة، وسرعان ما ذرف شهوته فيها، ثم نهض فرحًا، وارتدى بنطلونه، وذهب بعري أعلى جسده وهو في غاية الزهو، فها هو يضاجع جسدًا طالما حلم بلمس يد صاحبته يومًا.

بقيت "نوال" عارية مضطجعة على السرير، ليدخل عليها الشاب الثاني ويخلع ملابسه، ويقضي منها شهوته ولهفته، وهكذا فعل الشاب الثالث، فيما ظلت هي مستلقية تتلقى طعناتهم الهائجة بآلية وبرود وكأنها تخضع لممارسة لا حياة فيها ولا طعم ولا رد فعل، حتى لو كان سلبيًا.

بعدها جلس الثلاثة في الصالة، وخرجت هي لهم عارية تمامًا؛ شعرها منفوش، وماكياجها مبعثر في وجهها، وبدت مثل غزال جريح متوحش، ووقفت أمامهم بتحدٍ وفجور لا يضاهى، وقالت لهم باحتقار: هل لديكم طلب آخر مني؟

تطلَّع أحد الشبان الثلاثة إليها، وقد تطاير الشرر من عينيه فشكَّل شهوة جامحة، وقال لها بانفعال: نعم... لديَّ طلب آخر خاص عندك يا حلوة، ها أنذا آتٍ إليك، وذهب إليها سحبها من يدها وأدخلها غرفة النوم، ثم أغلق الباب، وبعد لحظات سمع زميلاه صوت رفض وصراخ "نوال" واحتجاجها، فهرعا إليهما، وفتحا الباب ليجدا زميلاهما وهو يدير ظهر "نوال"

إليه، بعد أن لوى يدها بقسوة وهي تستنجد وتعاني، فهو يطلب منها ممارسة شاذة وهي ترفض، وبعد أن شاهد زميلاه وضعه وهو متوتر عارٍ، ضحكا، وغادرا الغرفة وهما يضحكان، فيما بدأ الصراخ يهدأ وتحوَّل تدريجيًا إلى أنين مخنوق، ثم إلى مواء غريب، بعدها غلب على المشهد صمت مخيف.

(٢١)

اعتذر "ناصر سامي" لأوَّل مرة في حياته عن اللقاء بامرأة، وهذه المرأة هي "سهام" زوجة صديقه!، فهو لا يعتذر عن لقاء أية امرأة مهما كانت مواصفاتها، هكذا يقول عن نفسه بتفاخر دائمًا، فالمرأة عنده هي ذات المرأة ولا بد أن تكون لها مسحة من جمال في مكانٍ ما من عالمها الذي يجد سحرًا في اكتشافه والانتباه إلى مواطن الإثارة فيه. واعتذاره من "سهام" هذه المرَّة جاء بعد سيل من تساؤلات قاسية مع نفسه حول علاقته النشاز بها، كما أنه أصغى مستجيبًا لدعوة صديقه "رشيد" في التخلّي عن مثل هذه العلاقة المحرجة التي تخصّ صديقًا لهما رغم كلَّ ما يصم صديقهما من صفات غير حميدة، فالمعروف عن "حازم الوافي" أنه يتجاهل سلوك أصدقائه تجاه زوجته، حين يجاملونها أو يضحكون معها، وعلى أصدقائه؛ وأقربهم إليه صديقاه ناصر ورشيد، أن يخلصا لأعماق ذاتيهما حين يتعاملان معه أو مع زوجته، نعم كلاهما يعرف أنه في بعض الأحيان يتاجر بها، كما يعرفان أنها مغالية في علاقاتها السرية مع رجال عديدين، كما أن "ناصر" تحديدًا، سبق وأن تحدَّث معها بأمر سلوكياتها، بعد أن نام معها مرارًا، وفي أكثر المرَّات في بيتها، وأحيانًا بعلم صديقه، ولكن نصيحة "رشيد" له تنطوي

على حرص عليه وعلى موقفه الخاص من صديقهما الذي مضى بسلوكه المشين المعروف الآن للجميع، فهو، يريد أن يسكر، ويريد أن يحصل على المال بأي طريقة متاحة، حتى لو كانت على حساب سمعته التي فقدها منذ زمن، وحتى لو كانت تكلفه جسد زوجته الذي صار مباحًا تدريجيًا، هو يدرك بقسوة أنه فاقد لرجولته، وأنه لا يريد أن يعرف الآخرون هذا السر الخطير الذي لا تعرفه إلا زوجاته اللائي طلقهن، والآن لا تعرفه إلا سهام التي من المؤكد أنها أباحت به لأحد ممن ضاجعوها، فهو لا يدري حتى الآن من الذي فضَّ بكارتها، وهو حتمًا تنبه إلى حقيقة زوجها العنين، وهو لا يريد إلا المزيد من الهرب والتسكع والانتقال من وكر سكر إلى وكر آخر، هو الذي ما زال حتى هذه اللحظة حين يسكر حد ضياع كل شيء، يبكي وهو يتذكر التعذيب الذي تعرَّض له في السجن حين كان هاربًا من الجيش وأمسكوا به في صحراء السماوة وهو يحاول الهرب خارج البلاد، وتوالت عليه التُهم، وعذبوه حتى أفقدوه كلَّ شيء ورموه ذات ليلة باردة في ساحة لكرة القدم، ليصل إلى أهله وقد استغربوا منظر هزاله ولحيته الطويلة وقذارته، فأخذوه وأعادوا الحياة إليه كأيِّ جرذ، لم يعد يريد من الحياة سوى أكله وشربه، ثم وبعد فترة ليست طويلة استطاع المشي بشكل طبيعي، فاختلف مع أخواته الثلاث وأخيه الوحيد وأمه الحزينة منذ وفاة زوجها ـ أبيه ـ بحادث سيارة على طريق بغداد ـ عمان.

أيام كان الطريق قديمًا موحشًا لا أحد يسلكه سوى القلائل الذين يسوقون شاحنات نقل بين البلدين، وكان هو واحدًا منهم.
وترك "حازم" أهله ليضيع بين الحانات، ويدمن الزيجات الناقصة التي تُفضي إلى طلاق. وبعد أن أغلقت الحانات في التسعينيات، بدأ يبحث عن أوكار، وحاول في بعض لحظات الصحو النادرة أن يعود لرشده ويكمل الدراسة الجامعية التي اقتطعها في سنتها الأخيرة، إلا أنه كان سرعان ما يتراجع عن قراره هذا.

لا شك في أن "ناصر سامي" هو الرجل ـ الصديق الذي وجد فيه "حازم الوافي" ملاذًا له، وفي سرِّه لزوجته أيضًا، وهو الوحيد الذي ظلَّ ملازما لهما في لعبتهما الغريبة، ومع هذا فقد أفاق "ناصر" من كابوسهما، واعتذر من "سهام" التي دعته، كما اعتادت على ذلك، بلا خشية أو تردد، وقالت له بصريح العبارة أنني اشتقتُ إليك، وإلى النوم معك، أخبرها "ناصر" أنه مضطر للسفر إلى الموصل لأمر حتمي، ولا يعرف الموعد الحقيقي لعودته، وطلب منها عدم الاتصال به وعدم المجيء إليه في مكتب عمله أو أيِّ مكان يتواجد فيه، وعندما يفرغ هو من أعماله سيتصل بها.

شعرتْ "سهام" بالذل والإهانة، أو بصورة أدق شعرت بالرخص، لأنها طلبت من رجل، صحيح أن له معها علاقة أكبر من أن

تحدها مواقف اعتذار أو ربما ضيق من شيء ما، لكنه الآن يرفضها بجفاف، هكذا أحسَّت وهو يحاول إزاحتها عن مسار حياته، لذلك صمتت مع نفسها، وتأمَّلت حياتها ووضع زوجها وطبيعة علاقتهما، فاجتاحتها نوبة بكاء عارم، وقرَّرت العودة إلى شقتها وانتظار زوجها التافه، لتتقف معه على مصير كلٍّ منها.

أما "ناصر سامي" فقد اتخذ قراره الحاد بالابتعاد عن هذه المرأة، والابتعاد عن "حازم الوافي" زوجها ذي الروح الواطئة والكيان الذي لا يعدّل، وقد شعر "رشيد" بالغبطة لذلك، رغم أنه يعرف أن "ناصر سامي" مراوغ وأنه يرمي إلى أمرٍ ما، ومع هذا فرح بقراره هذا وشجَّعه عليه، كما أن "رشيد" هو الآخر قد قرَّر تجنب "حازم الوافي" وإلغاءه من حياته.

والذي يتصوَّر أن "ناصر سامي" قد اتخذ قرار قطع علاقته بـ"سهام وحازم" لنُبله أو استجابة لدعوة صديقه فهو مخطئ، فهو قد نسج خيوط علاقة جديدة مع امرأة متوسطة السن ثرية، وقد بدأت معه بالمدِّ المالي الذي يحتاجه "ناصر" في مشروع افتعله، إثر خسارة أمواله التي جناها ونمَّاها في صفقة خاسرة جعلته مفلسًا.

وقد أخذتْ علاقته بالمرأة الجديدة مسارًا سريًا تكتم عليه، لكنه ظل أمام الآخرين من معارفه وغير معارفه يبدو ذا شأن، وله

مكانة في المجتمع، بينما كانت هذه المرأة هي التي تقدِّم له كل ما يجعله راقيًا بهيًا متمكنًا، وكان "رشيد" يخشى أن يكون صديقه "ناصر" بوضعه هذا متعاونًا مع قوات الاحتلال أو مع جهة أجنبية معينة، وبالتالي فأنه سيعرِّض حياته للخطر، وقد حاول "رشيد" عدة مرَّات استدراج صديقه ليعرف عنه سرَّ عمله، إلا أن "ناصر" كان يأخذ الأمر بمزاح، ويؤكد أن ما يفكر به صديقه غير صحيح، وأن عمله بعيد كلّ البعد عن السياسة والأمريكان ودوخة الرأس، ومع ذلك لم يطمئن "رشيد" لتلميحات صديقه التي لا تخلو من سرّ، وظل يراقب ويلاحظ الكثير من تحركاته الغامضة، لكن استنتاجاته باءت بالفشل الذريع بسبب انعدام خبرته في ذلك، وكذلك طبيعة الأسلوب الذي يتصرف به صديقه الذي طالما عرض عليه وهو يبتسم أية مساعدة مالية يحتاجها منه، وقد رفض "رشيد" عرضه هذا رغم الأزمة المالية التي يمرَّ بها، ورغم إدراكه الصادق أن صديقه "ناصر" رغم كل سلبياته صادق في عرضه هذا لأنه يمتاز بسخاء من النادر أن يكون له مثيل في زماننا المعقد هذا.

وظلَّ "ناصر" مستمتعًا بعلاقته السرية المجنونة التي زادت من غموض وضعه لدى جميع أصدقائه، حتى بدأوا ينسجون الأساطير والحكايات الغريبة المثيرة حوله، وكان "ناصر" متلذذًا بذلك الغموض ويقابل ما يسمعه ببرود أعصاب وابتسامة أزلية فيها الكثير من التعابير المختلفة.

وكان "ناصر" قد بدأ يخطط لما بعد علاقته بالمرأة الثرية، حتى أنه ترك مكتبه الذي بدأ يرهقه، وفتح بدلاً عنه محلاً لبيع "الستالايت" ومواده، ليدر عليه موردًا جيدًا يُعينه في حياته، كما أنه يُؤمِّن له وضعه في حالة حدوث أي أمر مع المرأة الثرية.

(٢٢)

عثر "عامر" أخو "رواء" على جثة "جابر" المعتوه وهي مُلقاة في ساقية من السواقي التي تعترض طريقه وهو يمشي يوميًا في الصباح الباكر، قاطعًا الطريق بين بيته والشارع العام من خلال المزرعة الكبيرة التي تقع خلف محلتهم، كان ذلك صباح أحد الأيام الباردة نسبيًا؛ بينما كان "عامر" ذاهبًا إلى عمله اليومي الذي حصل عليه قبل مدة قصيرة، وهو في أحد محلات بيع المواد الكهربائية، كان يقطع الطريق الزراعيّ يوميًا، ليصعد سيارات "الكيا" الصغيرة المتوجهة من "الكاظمية" إلى "البياع" ثم يترَّجل في الطريق حيث موقع عمله.

منذ أن عثر على عمله الجديد قبل أقل من شهرين، وطريقه اليوميّ عبر المزرعة الكبيرة يحفل بالعجائب والغرائب، إنه يرى ما لا يُعقل بين الأشجار والسواقي الصغيرة الجافة التي يمر عليها، لذلك لا يستغرب، ولا يفاجأ حين يجد جثة تأكلها الكلاب أو أخرى مقطعة الأوصال مشوَّهة، وغيرها محروقة ولا ملامح واضحة فيها إلا الإشارات العامة والملامح المعروفة التي تشير إلى أن هذه الجثة تعود لكائن بشري، كما أنه شاهد آثارًا لمعارك دامية، لا يدري هل قامت في الليل أم في الفجر، حيث بُقع

الدم الجافة والعتاد المفرَّغ، أو في بعض المرَّات سيارة متروكة وقد تركت أبوابها مفتوحة وبداخلها جثة أو جثتان.
قرَّر أن يتعامل مع هذه الأمور وكأنها لا تعنيه لا من قريب ولا من بعيد، وهي كذلك من حيث الدلالة العامة عليها، لأن المشاهد في هذه الأيام يجب أن يُنظر إليها بحياد فقط، وأن تكون مادة حكائية للأهل والمعارف والأصدقاء، أما التدخل، سواء بتبليغ السلطات عنها أم بفحص أيّ أثر والوقوف عنده أكثر مما يجب، فهي من باب المغامرة بالحياة في هذه الظروف العصيبة التي تمرُّ بها البلاد.

وعليه ظلَّ "عامر" محايدًا بعيدًا عن المشاكل وزج النفس بإشكالات لا داع لها، وكلُّ ما يفعله هو إنه عندما يعود مساء إلى البيت، ويقطع طريق المزرعة ثانية منتقلاً من الشارع العام إلى البيت، هو إنه يتحدث لأمه المسنة العليلة وأخيه الكبير"حسام" وأخته "رواء" عمَّا شاهده في طريقه الصباحي، أما طريق العودة في المساء فإنه في الغالب هادئ لا يحمل أية آثار مما كان في الصباح، لكنَّ الجو يشوبه الحذر والترقب والخشية من كل شيء في الوجود.

أثارت مشاهدة "عامر" جثة "جابر" المعتوه هلعه، وفوجئ حقًا بهذا المشهد المريع الذي تخشّب جسده وبدا وجهه أصفر وفمه مفتوحًا وكذلك عيناه، ولحيته طويلة متشعثة وكذلك شعر رأسه،

فيما كان جسده مليئًا بالطعنات التي اخترقت بيجامته البيضاء المقلمة بالخطوط البرتقالية العريضة ونزف الدم من جسده في أكثر من مكان. لا يعرف "عامر" ماذا يفعل إزاء موقف مثل هذا، لذلك لم يذهب إلى الشارع وتخلّف ذاك اليوم عن عمله، وعاد دون أن يمس الجثة أو يفعل شيئًا سوى التقرّب الهلع منها والتعرف على ملامحها، ثم عاد جريًا إلى المنزل وأخبر أخاه "حسام" الذي ما زال في المنزل؛ بأمر عثوره على جثة "جابر" وهي ملقاة في ساقية، خرج "جابر" مع أخيه ليبلغ "أبا صبيح" وهو الكبير بين أهل الزقاق، ثم ذهبوا مجتمعين، إلى دار أمه "نوال"، طرقوا الباب وانتظروا ردًا، لم يحصلوا عليه، فقرروا الذهاب إلى مركز الشرطة القريب وإخبارهم بأمر عثورهم على هذه الجثة، وجرت الأحداث سريعًا، حيث خرجت سيارة للشرطة ذات حوض واسع واستدارت من جهة الشارع العام المحاذية للمزرعة، التي دخل إليها ثلاثة من رجال الشرطة المسلحين يرافقهم أبو صبيح وحسام وعامر، ثم وصلوا حيث الجثة ورفعوها بعد أن لفّوها ببطانية جلبها معه "عامر" من البيت، ثم حملوه إلى مركز الشرطة، بانتظار من يأخذه إلى الطب العدلي في الباب المعظّم، وبعد أن أقنع أهل المحلة الشرطة بأنه شبه وحيد لأرملة "مسكينة" وأخ وأخت صغيرين لا يعرفان شيئًا، كما أنهما تعودا فراق أخيهما المرحوم منذ أن أصبح بهذا الوضع المأساوي واتفقوا على أخذه وتغسيله ودفنه في أقرب

مقبرة في العاصمة بغداد، ومن ثم سوف يخبرون أهله وذويه، ففي هذه الظروف المعقدة، وفي مثل حالة قتله، فلا أحد يفكر في أخذ ثأره أو حتى يمضي إلى عشيرته لتأخذ الوقف المناسب في مثل هذه الحالات فالمقتول، معتوه تائه في شوارع المدينة، والجاني مجهول في ظروف غامضة، من الأفضل أن يتصرف الجميع مع هذه الحالة بحكمة عالية وهدوء يتناسب مع طبيعة الحدث والهلع الذي أثاره بين شباب المحلة جميعًا.

وهكذا تمَّ الأمر بالاتفاق، ريثما تحضر "أم جابر" وعندها سيتفقون معها على الإجراء المناسب الذي تحبذه، في إقامة مجلس الفاتحة على روحه، أو الاكتفاء بقراءة سورة الفاتحة في منزلها بصورة لا تكاليف فيها ولا جهد قد لا تستطيع أداءه وهي الوحيدة الآن وأهل زوجها الراحل بعيدون عن العاصمة ومجيئهم في مثل هذه الظروف قد يُشكِّل خطرًا لم يحسبوا حسابه، وبالتالي ينزل الأداء الشكلي للواجب كارثة لا مبرر لها.

المهم، دفنوا جثة "جابر" في مقبرة قريبة، ووضعوا على قبره شاهدة صغيرة تدلّ عليه، وحين جاءت "نوال" وبدا عليها الحزن والتعب الشديدان، ذهبت إليها "رواء" وأمها المسنة العليلة يرافقهما أبو صبيح وحسام وعامر، ليبلغوها بالأمر وكيف تصرفوا حين أجمعوا على القرار بشكل جماعي، وبعد أن أخبرتها "رواء" بعثورهم على جثة ولدها الكبير "جابر" وهي

مُلقاة في ساقية وفيها عدد من طعنات السكاكين، وجلبوها، وإلى آخر التفاصيل، صمتت "نوال" وفتحت عينيها دهشة، وبدت وكأنها مجنونة وهي تطلق صرخة كبيرة، ثم تبعتها ببكاء ولطم على صدرها وخديها ونفشت شعرها، فوجئت "رواء" وأمها برد فعلها هذا، فهما طالما سمعتا منها ما يؤكد تمنيها للخلاص منه، وحاولت كلٌّ منهما تهدئتها، ولكن عبثًا، حتى جاءت نسوة أخر سمعن الصراخ وساهمن في تهدئة الموقف.

(٢٣)

شعرت "سهام" بالسأم والإحباط، كما شعرت بأنها قد أُمتهنت حقا، وأذلّت أيَّما إذلال، بعد أن تعامل معها حبيبها الحقيقي "ناصر سامي" هذا الرجل الوسيم الذي منحها كلَّ ما أشعرها أنها أنثى حقيقية، ومنحته أسرارها وجسدها وحبها الحقيقي الصادق، ها هو يهرب منها، وها هي تعود إلى معاناتها وحرمانها وتمثيلها الزائف لدور الزوجة لشخص شاذ في الكثير من تفاصيل حياته ووضعه النفسي والاجتماعي، وبدت تتساءل: لماذا تزوَّجها؟..

تذكَّرت أيام الكلية حين تعرفت عليه، وكان في غاية الرقة واللطف معها، حتى أنه كان يختلق المناسبات ليقدم لها هدية رائعة، ثم غاب عنها بعد أن ترك الكلية لأسباب قالوا لها إنها سياسية، وهي حقيقة لم تسأله حتى الآن عن تلك المسألة، ثم سمعت أنهم جلبوه من حدود العراق المؤدية للسعودية، ليُسجن وتغيب أخباره عنها، ثم ليظهر فجأة بعد سنوات ويلتقي بها ويعبر لها عن خلود حبه لها، ثم يتزوجها، وفي ليلة زفافهما، فوجئت به وهو يشرب الخمر الرديء بشراهة، ثم سكر وبكى على صدرها، فيما ظلَّت هي بملابس زفافها، حتى الصباح، وتكرَّر الأمر في الليالي التالية، لتظل عذراء ويظل هو على

سريان عادته في السكر والبكاء، حتى جاءته ذات يوم، وبدأت هي تتحرش به، وقد واجهته بأمر عذريتها، وأظهرت له مفاتنها بحركات إغراء تُحرِّك الصخر، ثم توغلت في شعاب جسده الهزيل عرَّته وقبَّلته، وحرَّكت أشياءه بلوعة وشهوة عارمة، فكان كالتمثال، لا حركةً ولا نبضًا، ولا ردَّ فعل، سوى الهرب إلى المطبخ وفتح باب الثلاجة وشرب كمية كبيرة من الماء، ثم عاد إليها وقد قال لها باختصار وهو مخنوق يريد إطلاق نوبة بكاء : لقد سلبوني رجولتي فتحمَّلي أرجوكِ، افعلي ما تريدين، ولكن دعي سرِّي مخفيًا.

من يومها شعرت تجاهه بمشاعر مزدوجة، هي مزيجٌ من الندم والشفقة والحزن والغضب، ثم وجدت في سلوكه معها ما يثير التساؤلات، فقد اتخذها ممرًا لحصوله على المكاسب المادية والمشاريع التي لا تعرف عنها شيئًا، وجعلها بين فكّي جُلاسه، حتى شعرت أنه اتخذ قرارًا لفض بكارتها وإنهاء أسطورة عذريتها التي تفضح سرَّه، فقررت إعطاء الدور لصديق كتوم، وهيأ له الأمر فحقق له ما أراد، وبعد هذا المشروع الخسيس منه، صارت مُضغة للكثير من زائريه. ثم لتصحو من كابوسها، ولتجد نفسها بهذه الوضاعة وهذا الابتذال، والذي جرحها أكثر أن الشخص الذي أحبته قد رفضها، وألقاها كأيّ قطعة بالية لا حاجة له فيها.

مضت "سهام" وهي تستعيد شريط حياتها، دخلت إلى الشقة دون أن تعرف كيف صعدت السلّم المتهرئ، وكيف فتحت الباب بالمفتاح، لقد كانت هائمة، مشغولة الذهن، عيناها غائمتان لا تريان شيئًا، وجدت الشقة مهملة، أشياؤها مبعثرة، تملؤها الأوساخ بكل ما تعنيه الكلمة من معنى، كما تفوح منها روائح القذارة، وكأن جثة قد تُركت فيها، سألت نفسها: كيف يمكن لي أن أعيش هنا ولا أشم يوميًا روائح هذه القذرات؟

ذهبت إلى غرفة نومها الكئيبة، جلست على السرير البارد المتهرئ، وقد وضعت وجهها بين يديها واستغرقت في نوبة بكاء محموم، هذا البكاء الذي أجَّلتْه سنوات، ثم رفعت رأسها، ونظرت إلى نفسها في المرآة نظرة متحدية مخيفة، وذهبت إلى حقيبتها الكبيرة التي جمعت فيها بعض الأغراض، بحثت بين أغراضها، ثم أخرجت ملفًا أخضر يضم مجموعة من الأوراق أخذتها ووضعتها على السرير، ومضت مسرعة إلى الحمام، غسلت وجهها وأعادت ترتيب ماكياجها، وعادت إلى غرفة النوم، أخرجت ورقة صغيرة من الدرج الصغير في جانب السرير وكتبت رسالة قصيرة وضعتها على جانب من المرآة الكبيرة، ثم أخذت الملف الأخضر بأوراقه، وخرجت مسرعة من شقتها، أقفلت الباب، ونزلت راكضة إلى الشارع، لتبتلعها أوَّل سيارة أجرة في الطريق.

(٢٤)

ذاب صوت المؤذن في الفجر، العالم كلّه يتثاءب الآن، وعلى غير عاداتهم، ظلّ الناس جميعًا، حتى مدمنو صلاة الفجر منهم، على رقدتهم في الفراش، لم يكونوا نيامًا طبعًا، فهم لم يذوقوا طعم النوم منذ ليلة أمس، حيث حلَّت الفاجعة، عينا "رواء" حمراوتان، وقد فتحتهما على اتساعهما، فيما ذبل الدمع وهو يرسم خطين متعرجين يزحفان على خدَّيها، وقد شرد ذهنها، حتى أنها لم تنتبه لنداء أمها المتكرر عليها.

لم يغب عنها لحظة منظر أستاذها في الكُليَّة الذي أُغتيل على مرأى منها ومن زملائها المحتشدين في باب الجامعة، حيث ألقى عليهم الأستاذ الشاب الدكتور "عبد الرزاق" التحية وهو مرح مبتسم، وصعد سيارته الحديثة، منطلقًا بها لبلوغ الشارع الرئيسي كي يذهب إلى بيته بعد انتهاء حصصه في الجامعة، وما هي إلا لحظات من حركته حتى انقض عليه أربعة ملثمين بسيارتهم الكبيرة التي صدموا بها سيارته التي اصطدمت بدورها من هول المفاجأة بسياج الجامعة الخارجي، ثم ترَّجل منها اثنان بسرعة مذهلة وأمطروه بالرصاص حتى صار جسده ينز دمًا من جميع أنحائه إلى أن فقد الحياة وهو غارق بدمائه، بينما أصيب الطلاب الذين يتفرجون على مشهد الفاجعة بالهلع

الشديد والارتباك وقد انهارت أعصاب بعض الطالبات، وركض بعض الطلبة إلى جثة أستاذهم، دون أن يفعلوا شيئًا سوى حمله وهم يبكون إلى استعلامات الجامعة، لتبدأ إجراءات الموت المؤسفة الحزينة.

يومها عادت "رواء" إلى البيت مرعوبة وبقيت تبكي طوال اليوم، الذي لم تأكل فيه شيئًا، وقد اكتمل حزنها ورعبها وهلعها حين جاء أخوها "عامر" مرتبكًا وهو يبلغها عن عثوره على جثة "جابر" المعتوه جارهم.. أما الأمر الذي جعل أعصابها تنهار تمامًا، فهو النبأ الصاعق الذي نقله أخوها الأكبر "حسام" وهو الهجوم المريع من قِبل مجهولين على بيت جارهم "أبي سليم" الذي يقع في مدخل الزقاق من جهة الشارع العام، حيث قُتل في الهجوم جميع أفراد العائلة الثمانية "الأب والأم وأبناؤهم الستة، ثلاثة بنين، وثلاث بنات"؛ "رواء" تعرفهم واحدًا.. واحدًا، وأبناء المحلّة كلهم يعرفون أن لا أذى لهم على أحد، وهم عائلة مسالمة يعمُّها الهدوء، وقد مضى على سكنهم في المحلة أكثر من تسعة أعوام، دون أية مشكلة، أو ملاحظة مؤشرة ضدهم، لذلك شعر جميع الناس عند معرفتهم نبأ مقتل هذه العائلة المسكينة بالحزن والرعب ولم يناموا حتى الصباح، لأنهم خافوا من مجهول رهيب أن تكون مصائرهم مثل مصير بيت "أبي سليم" الذي لا ناقة له ولا جمل على حد معرفتهم بهم بما يحدث من اضطرابات وتداخلات عجيبة. والأدهى في أمر

الجريمة أن الجناة قتلوا ضحاياهم وشوهوا وجوههم وأجسادهم دون أن يسرقوا أيَّ شيءٍ من محتويات البيت حتى الثمينة منها، فيما سرت شائعات كثيرة حول أسباب الجريمة التي لم تكن السرقة حتمًا دافعًا لها.

مدَّت أم رواء المسنة العليلة يدها إلى رأس ابنتها المضطربة، وأزاحت بحنان وحزن مرير شعرها عن وجهها، مسحت أحد خطي الدموع من إحدى عينيها، فجفلت "رواء" وانتبهت لأمِّها، التي رفعت يدها إلى العين الثانية لابنتها ومسحت خط الدمع الثاني عن عينها الثانية، فيما قالت "رواء" بصوت حزين مخنوق: آسفة يا أمي، أخذني الحزن وأنا أعيش هذه الأحداث الأليمة المؤسفة، التي ذهب ضحيتها أبرياء، لا حول لهم ولا قوّة.

قالت لها أمها مُهدِّئة: وماذا يفعل الحزن والأسى يا ابنتي ؟! انتبهي لنفسكِ، إنكِ تضرين صحتكِ في أساكِ وشرودكِ هذا.

قالت "رواء" بصوتٍ باكٍ: لماذا هذا القتل، هل هناك سبب في الدنيا يجعل الإنسان يقتل إنسانًا آخر، وبهذه الأساليب الوحشية البشعة؟

قالت الأم برباطة جأش وقد أحسَّت بأنها سحبت ابنتها من بئر الصمت واليأس والأسى: إنها عداوات يا ابنتي، ألم تسمعي الحكايات التي تتحدَّث عن طبيعة المجرمين وأسباب قتلهم لعائلة "أبي سليم"؟

قالت "رواء" بحزن: إنها شائعات يا أمي، فالناس يخافون أن يقولوا عن الضحايا بأنهم أبرياء، رغم معرفتهم ذلك، لأنهم يتوقعون المصير ذاته، لذلك قالوا عنهم ما قالوه... بالمناسبة ماذا قالوا عن الجريمة من شائعات؟

قالت الأم: قالوا إن القتلة من أقاربهم، ولهم ثأرٌ قديم بينهم، استغلوا الوضع الأمني السيئ للبلاد فانقضوا عليهم في ليلة سوداء!.

تنهدت "رواء" وهي تُبدي عدم قناعتها بالأمر، ثم نهضت من فراشها، وذهبت إلى الحمّام، شعرت بجسدها منهكًا، وكأنها قد أدَّت عملاً شاقا، وقد أتمَّت وضوءها بصعوبة، ذهبت إلى غرفة استقبالهم الفارغة التي دخلت إليها خيوط الشمس توًّا، ثم أدَّت صلاتها، متأخرة عن موعدها لأوَّل مرَّة منذ أن بدأت تُصلّي.

ذهبت الأم المسنة العليلة بتثاقل إلى المطبخ لتعد وجبة الإفطار لولديها وابنتها، الذين لم يناموا حتى الصباح لفرط الحزن والرعب وتضارب الأنباء التي تناقلها الجيران بسرية وخشية وحذر حول مقتل عائلة كاملة تسكن في رأس الزقاق.

بعد أن أنهت "رواء" صلاتها، سمعت جلبة وضوضاء خارج البيت، فأسرعت للاحتماء بأمها وأخويها، أخبرتهم أن هناك شيئًا ما يحدث في زقاقهم، خرج "حسام" لمعرفة أمر ما يحدث، وأطلَّ من الباب الخارجي لمنزلهم فشاهد شاحنتين كبيرتين

خاصتين بالحمل، الأولى تقف في باب بيت "أبي رافد"، والثانية أمام بيت "أبي جمال" ورأى أفراد العائلتين وهم يحمِّلون أغراضهم على عجل في الشاحنتين، ذهب "حسام" مستفسرًا من جاره "أبي رافد"، فقال له إنهم سيرحلون إلى محافظة أخرى خشية أن تتعرض عائلتهم إلى ذات مصير أبي سليم المسكين. استغرب "حسام " ما سمعه من أبي رافد وأبي جمال، وعاد إلى أمه وأخته وأخيه ليخبرهم بأن العائلتين هربتا خوفا من مجريات الأحداث المخيفة.

وقد أخذت مجريات الحياة مسارًا مختلفًا، يحمل الهواجس والتساؤلات والمحاذير حول ما سيحدث في الأيام القادمة التي تنذر بالشؤم والمجهول المخيف، وبدأ الناس جميعًا يضربون أخماسًا بأسداس كما يُقال !.

صمتت أم رواء طويلاً وهي تضع وجبة طعام الإفطار أمام ولديها وابنتها، الذين بدأ الواحد منهم يهدِّئ هلع الآخر ويشجعه على تناول طعامه، فلا جدوى من صوم قسري في هذه الظروف، حتى تنبهوا لصمت أمهم التي باغتتها "رواء" قائلة: لماذا لا تأكلين يا أماه ؟..

ولم تجب الأم، مما حدا بـ"رواء" لتكرار سؤالها، الذي أفاقت عليه الأم بعد أن كانت شاردة الذهن، وقد أجابت بارتباك : نعم.. يا ابنتي، نعم يا ولديَّ، سآكل.. طبعًا سآكل، كلوا أنتم، ها أنا ذي

أمُدُّ يدي، تفضلوا جميعًا اطمئنوا فلست صائمة مثلكم.. ومدَّت يدها بصعوبة لتتناول معهم الأكل.

لقد ذهبت أم رواء بعيدًا في صمتها وشرود ذهنها، فها هي ترى ابنيها وبنتها... "عامر" لليوم الخامس بسبب تكرار الأحداث لم يذهب لعمله، و"حسام" ترك العمل مع صاحب السيارة الذي هو قريبٌ لهم بسبب خشيته من تطّور الأحداث وتعرُّض "حسام" والسيارة معًا لخطر محتمل، وها هي ابنتها تعيش أيامًا من الحزن والكآبة بعد أن توقف الدوام في الكلية إثر اغتيال أستاذها في الجامعة وأمام أنظار طلابه.. ترى ماذا ستفعل هذه الأم العليلة الصابرة، حين تتطوّر الأحداث ويتعرَّض بيتهم "لا سمح الله" للتهديد والأذى، ماذا سيكون مصيرها مع أبنائها، وإذا فكَّرت بالهجرة وترك المنزل؛ كما يفعل الآخرون من جيرانهم، فإلى أين تذهب يا ترى في هذا الوقت العصيب؟ من يستطيع تحملهم؟ وكلُّ ما ادَّخرته من أموالٍ لوقت الشدة، لا يكفي لمعيشة أسبوعين أو ثلاثة بدون وارد يعزز رصيدها، فأبناها لن يتمكنا حتمًا من العثور على عمل مناسب في هذه الظروف، والإنفاق سيزداد بزيادة أكيدة في الأسعار.

قال "حسام" بعد أن حدس ما تفكِّر فيه أمُّه : اتركي الأمر لتقدير الله عز وجل فهو أرحم الراحمين كما تعلمين يا أمي، وأنا أتوقع أن ما يحدث من اضطرابات فورة وزوبعة سوف تنتهي قريبًا.

قالت أمه وقد شعرت بطمأنينة عجيبة نزلت على قلبها :
نعم يا بني، وإن شاء الله سيكون الأمر غيمة عابرة في بلادنا التي لم تشهد فتنًا يتقاتل فيها أبناؤها، إنني مطمئنة، لا تقلقوا من شرود ذهن عابر اعتراني، فهناك موضوع عارض تذكرته فشغلني، اطمئنوا يا أبنائي، كلوا زادكم، هنيئًا.. مريئًا.

(٢٥)

عاد "حازم الوافي" إلى شقته، وفتح الباب بصعوبة كعادته، فالسُكر الشديد يجعله معدوم التركيز دائمًا ولا يستدل على فتحة وضع المفتاح في الباب إلا بعد جهد تعوّد على معاناته، ولو قبلت "سهام " لترك الباب مفتوحًا، فما الذي يحدث لشقة فقيرة قذرة مثل شقتهما إذا ترك بابها مفتوحًا؟!

لم يجد زوجته، وهو أمر صار لا يعنيه كثيرًا، وما فعله هو ذهابه إلى الحمام، وإفراغ ما في مثانته، ثم الإسراع إلى غرفة النوم، وخلع الحذاء على عجل، لتساهم رائحة جواربيه التي لا يمكن تخيل العفونة التي تنطلق منها، والتي لا يستدل عليها هو طبعًا في إعلاء شأن القذارة التي تهيمن على الأجواء في هذا المكان الذي يُسمَّى مجازًا "سكنًا لعائلة"، وأية عائلة تتكوَّن من زوجين مثلهما.. ألقى جسده المنهك على السرير المتهرئ، وحين تقلَّب يمينًا ويسارًا، لمح ورقة ملصقة على المرآة الكبيرة في الجانب الأيمن، فحمل نفسه بصعوبة وذهب ليقرأ ما فيها، وقد كانت من زوجته التي كتبت له:

" زوجي الزائف..

لقد مللتُ الحياة السخيفة معك، وشعرت بالاحتقار لنفسي، بعد أن حوّلتني من إنسانة صالحة، إلى قحبة رخيصة، قررتُ السفر

خارج العراق، فلا تسأل عني، واعلم أن سرَّك يعرفه عددٌ من أصدقائك الذين ناموا معي، وأولهم ناصر سامي، الذي أعلم أنه يكنُّ لك كل الاحتقار..

عِش لحياتك التافهة

اسكر.. اسكر حتى الموت

وتسكّع مع الكلاب السائبة

حتى تعثر على ضحية جديدة، لتحوّلها إلى "مومس عمياء"

..... سهام "

حين أكمل "حازم" قراءة الورقة فتح عينيه دهشة، وكوَّرها بانفعال، ورماها بعصبية، وهو يصيح: عاهرة، مجنونة، كلبة، حقيرة، لقد تركتني في هذا الظرف الصعب، بعد أن عرفت أسراري كلها، أين تذهبين مني سأقتلك، أيتها السافلة.

ثم عاد إلى السرير ونام على ظهره، وهو يتأمل السقف، ثم نزلت دموعه، وخلد إلى النوم، بعد أن تذكَّر أيَّامه الجميلة، قبل أن يُخصى، ويصبح ممثلاً لهيئة رجل، سرعان ما يكتشف زيفها، تذكَّر أحلامه، وآماله وطموحاته السياسية التي انكسر عودها حين أمسكوا به واقتادوه مثل الجرذ ليذوق أمَّر العذاب وأحقره وأقساه، تذكَّر كيف عرَّوه وعلَّقوه في المروحة ليدلي باعترافاته كاملة، وحين رفض أوَّل مرَّة سحبوه من قضيبه، وأدخلوا عود ثقاب في فتحته وأشعلوه، ثم أخذ يصرخ بجنون وقرَّر الاعتراف

بكل ما يريدونه، بل العمل معهم والتعاون وإعطاءهم التقارير المستمرة، هذا الأمر الذي أشعره بالسقوط الكلّي، فأدمن الخمر والانتقام الغريب من ذاته، ومن كل روح إنسانية يشعر فيها ثُبلاً وسموًا.. وهكذا ها هو يرتطم بأسوار حقيقته، وها هي زوجته التي أحبها حبًّا جمًّا، تنتصر لإنسانيتها وتهرب منه، بأسلوب لم تفعله زوجاته قبلها، فالزوجة الأولى "فاتن" تعلَّق بها عند إطلاق سراحه ودخوله الحياة الطبيعية، وسحرها بكلامه، وسرعان ما قبلت بالزواج منه، وفي الليلة الأولى جاءها متوثبًا، وبعد أن قبَّلها وداعبها، عرف أنه لا يستطيع ممارسة الجنس، وكان قد شعر ببروده في مناسبات سابقة إلا أنه توقع الأمر وقتيًا، وما أن يختلي بفتاة جميلة تثيره، حتى يتفتق عن رجولته من جديد، ولكن لم يحدث هذا الأمر وظلت معاناته وحيرة "فاتن" وتساؤلاتها دائمة في حياتها العسيرة معه، حتى اتفقت معه بهدوء على الطلاق والحفاظ على سرِّه المؤلم.

أما زوجته الثانية الفنانة التشكيليّة "سلوى" فجميع معارفه ومعارفها يعرفون أنها جريئة حدَّ الوقاحة وأنها لا تتورع من ممارسة الجنس مع أيّ رجل يعجبها، والغريب في الأمر أن "حازم" تعرَّف عليها في أحد معارضها، ومضى معها في نقاش حادّ أكملاه في شقتها الفاخرة في حي المنصور الراقي، وقد تناولا البيرة مع حوارهما المحتدم، الذي تكرَّر في أيَّام أخرى،

وقد استغرق "حازم" بعلاقة قوية معها، كان جميع من يشاهدونهما معًا، يظنون أن هناك علاقة جنسية قوية بينهما، حتى فوجئ الجميع بإعلان زواجهما، حيث وجّهت الدعوة لحضور هذا الحفل الذي أقيم في قاعة نقابة المهندسين الزراعيين في المنصور، ثم مضيا شديدي التعلّق ببعضهما البعض وبدا انسجامهما للآخرين وكأنه انسجام عاشقين التصقا ببعض حُبًّا وتفاهمًا. والحقيقة أن "سلوى" الفنانة الناجحة، والتي لا حواجز في طريقها إزاء أيّ علاقة تراها تشبع رغباتها، وتضيء آفاق فنها بشكل ما، وجدت في "حازم" مظلّة تناسب مشروعاتها التي تتطلب منها حضورًا اجتماعيًا مقبولاً، فهو زوج أنيق مثقف، يحضر معها في كلِّ المناسبات الاجتماعية ذات النمط الخاص، والتي يحضرها مسئولون في الدولة، قبل احتلال البلاد وسقوط نظامه، ومع هؤلاء المسئولين عائلاتهم، ذات المستوى الراقي. وهكذا قضى الزوجان حياة مستقرة، يحسدها الآخرون في الظاهر، ولكن في واقع الأمر أن "سلوى" سرعان ما أدركت أزمة زوجها، فالتجأت لعلاقاتها، وأحيانًا تخبره أن لا يأتي إلى شقتها، التي أسكنته فيها معها، لأنها على موعد مع شخص مهم، وهو الذي سيتوسط لها، لتفتتح معرضها الفني القادم في أوربا، حتى ملَّ "حازم" هذا الأمر، وعاد ثملاً في إحدى الليالي، وفتح الباب بمفتاحه الخاص، وسمع منذ دخوله شهقات اللذة لزوجته الشرهة، ولهاث الرجل

الذي يمتطيها، فتسلل بهدوء إلى المكتبة، ونام على أريكة فيها، وفي الصباح، دخل عليها وهي نائمة فيما كان رجل اللهاث والفحيح قد رحل، فوجدها ثملة ببقايا اللذة على وجهها وجسدها وفي عينيها وشعرها المنفوش، صمت وهو يحدق بوجهها، ثم قال لها بهدوء مكسور : أنتِ طالق.

وعاد إلى أجوائه، ونمط حياته اليومية، حتى التقى بـ"منى" وهي بائعة زهور في أحد المحلات الجميلة في بغداد الجديدة، هكذا هو "حازم" يتنقل في بغداد، مرة في جنوبها وأخرى في شمالها، أو مرة في شرقها وأخرى في غربها، فبعد انكساره في حي المنصور، ذهب إلى بغداد الجديدة، أعجبته "منى" الصبية الجميلة الرقيقة ذات الملامح الطفوليّة المحببة، أغراها بالكلام المعسول والسلوك المفتعل، وأناقته، التي هي في الحقيقة مستعارة، فهو يعتمد في ذلك على أخيه، فيذهب إليه بين مدة وأخرى يأخذ منه المال بحجج مختلفة مكشوفة لأخيه، لكنه لا يبخل عليه، وإضافة إلى ذلك فهو يشتري الملابس الجديدة له، كان دائم الدعوة له لمعاونته في عمله لقاء أجر محترم، لكنه يرفض ذلك، وأخيرًا أخبر أخاه بأن لديه رغبة بالزواج من هذه الفتاة الرقيقة "منى" وأخذ أخاه مع مجموعة من معارفه، وخطبوا الفتاة، ثم عقد قرانه عليها، لكنها اكتشفت غرابة سلوكه، وإدمانه الخمر، ونشأت مشاكل بينهما أدَّت أخيرًا إلى

طلب الطلاق منه دون المطالبة بأية حقوق، المهم أن يتركها وشأنها، وهكذا... حتى التقى سهام، وها هي الأخرى تتركه.

نهض "حازم الوافي" من نومه صباحًا، وكان في ملابسه التي لم يستبدلها، شعر بالتعب الشديد، وتذكَّر ومضات كوابيس مزعجة راودته، نظر إلى وجهه في المرآة، وأعاد قراءة رسالة "سهام" التي تركتها له، ذهب إلى الحمام، شعر بالدوار فتقيأ ما في جوفه، ثم غسل وجهه ويديه، وعاد إلى غرفة النوم، ارتدى حذاءه على عجل، وخرج من الغرفة، فتح الباب، دون أن يغلقه وراءه، ومشى صامتًا، حتى وصل إلى الجسر الرابط بين الكرخ والرصافة، صعد باتجاه الكرخ، وحين وصل إلى منتصف الجسر، توقف، ونظر يمينًا ويسارًا، كان الناس مشغولين في رواحهم ومجيئهم عن بعضهم البعض، صعد على السياج الحديدي المشبك الأخضر الواطئ للجسر، لا أحد يعبأ به، ثم ألقى بنفسه إلى دجلة...

حينها نظر الناس باتجاه الرجل الذي ألقى بنفسه في النهر، الكل ينظرون إلى "سورة الماء" التي حدثت في موقع سقوطه، دارت النوارس حول الماء، واختفى الرجل الساقط، وسرت الهمهمات، انتحر رجل، وستطفو جثته حتمًا !!.

(٢٦)

ازدادت أوضاع البلاد فوضى وسوءًا في كلِّ شيء، واستشرت مظاهر عجيبة غريبة، كُشفت أسرارٌ وعُرضت بشكلٍ استفزازيٍّ على الناس، بعضها مبالغٌ فيه، والبعض الآخر حقيقي.. أحد الصحفيين قصد ميادين مغامرات ابن رئيس النظام السابق، ووجد ما هو غريب ومثير من صور ولقى وتحف ومشروبات عليها تواريخ إنتاجها الموغلة في التعتيق، ووجد غُرفًا أخذت أسماء لها كعناوين استفزازية، كان يمارس بها جنونه، فيما تحدَّث الناس لهذا الصحفي عن بعض الطقوس الغريبة لابن الرئيس، حين كان يقيم حفلاً للمجون.

ظهرت في البلاد مئات الصحف، وبرزت أسماء لصحفيين ورؤساء تحرير كانوا بقالين أو تجارًا أو مقاولين، وارتدى الكثير من الناس أقنعة جديدة، وأعلن عن سجونٍ سرية، وسجناء جُدد، ومقابر جماعية، وضحايا من كل نوع، كما ظهرت حالات للانتقام، والقتل، والتحريض عليه، وبدأت مظاهر التنابز بالألقاب والتعرّض المتبادل من قبل البعض للبعض الآخر، لأغراض لا علاقة لها بالواقع.

ارتفعت الأسعار فجأة، وشحت المواد الغذائية، والوقود أيضًا، كثرت ظاهرة العثور على عدد من الجثث مجهولة الهوية.

انتشلوا جثة "حازم الوافي " من النهر، وألقيت في كارثة الطب العدلي، وهي متهرئة، ومضت "سهام" إلى بلد مجاور، وعاشت حياة مضطربة، غلّفها العوز والحاجة والذل، فالتجأت للعمل في أحد الملاهي الليلية، بعد أن غيَّرت اسمها، والكثير من ملامحها.

ذهب "رشيد" إلى تجمُّع ضم موظفي دائرته، كي يحصلوا على منحة جديدة للطوارئ؛ هكذا أسموها، فقد تسلَّم منذ مدة مبلغًا قدره "عشرون دولارًا"، وهو المبلغ الذي وُزِّع على جميع موظفي البلاد كدفعة طوارئ أولى، ثم ها هو يمضي لتسلُّم دفعة أخرى بعد شهور من الدفعة الأولى، علمًا أن بعض الموظفين تسلَّموا في هذه المدّة أكثر من دفعة، الدولار، ينخفض سعره، وورقة العشرة آلاف دينار الحمراء أصبحت عبءً على حامليها وصارت قيمتها لا تتجاوز النصف، وأخر ورقة حمراء لدى "رشيد" صرَّفها بالكاد بستة آلاف دينار، ولا أحد يعرف لماذا طبعًا.

لقد كان تجمع موظفي الدائرة التي يعمل فيها رشيد، قرب الساحة التي تقع في باب وزارة الإعلام التي حلّت، وبقي موظفوها حائرين لا يعرفون مرسى لهم. وصل "رشيد" إلى المكان فوجد زملاءه محتشدين فقبَّل بعضهم البعض الآخر، ووقفوا منتظرين مدير حساباتهم، وهم يتأملون مبنى الوزارة المُدَّمَر والمحروق في الكثير من طوابقه، وقد قيل إن وزير

الإعلام، ذهب إلى دولة الإمارات وهو يعيش مرفهًا سعيدًا، فيما ظلَّ موظفو وزارته تائهين، وبعد انتظار مزعج، وقلق عمَّ الجميع بسبب توقع المفاجآت، وصل مدير الحسابات وبدأ توزيع الحصة الجديدة من منحة الطوارئ.

وبعد وقت أحسَّه "رشيد" ثقيلاً، طويلاً، مضى إلى منطقة علاوي الحلة مشيًا مع بعض زملائه الموظفين، وتأملوا الخراب والدمار والفوضى، ثم وصلوا إلى المتحف الوطني العراقي وشاهدوا الثقب الكبير، المخيف الذي ضرب بوابته الكبيرة، وعرفوا أن مئات اللقى الأثرية والآثار النفيسة والوثائق التاريخية المهمة قد سُرقت منه وهُرِّبت إلى خارج البلاد، شعروا جميعًا بالأسى، فهناك ثروات وطنية لا تخصّ شخصًا أو حكومة، ولا تعني أحدًا أو جهة بعينها، إنها ثروات وطنية، وشواهد تاريخية وإنسانية على حضارتنا وقيمنا.
شعر الجميع بأن البلاد كلها قد خضعت للبيع، وصارت نهبًا للصوص من كلِّ نوع.
في علاوي الحلة، وجد كلٌّ من "رشيد" وزملائه ضالتهم، وركب كلٌّ منهم السيارة التي توصله إلى محل سكناه.

لا يدري "رشيد" لماذا تذكَّر الآن صديقه "ناصر سامي" وكان جالسًا في سيارة "الكيا"، وفي المقعد الأخير منها بمحاذاة الزجاجة الجانبية للمقعد الخلفي منها، تأمل الشارع، المحفور

بسبب مرور الدبابات والآليات الأميركية فيه، وهي التي لا تحسب حسابًا للرصيف أو الشارع، أو حتى الأبنية القريبة، وعلى استعداد دائم للتهديم والاختراق، وربما الاصطدام بأية سيارة وتحطيمها وقتل من فيها، لا رادع لهم في بلاد تائهة، وحتى السياسيون الذين أعلنوا عن أنفسهم، كانوا بلا أية حظوة أو حضور، لذلك صار الاحتياط من كل شيء وفي كل خطوة واجبًا، سيارة "الكيا" ماضية في طريقها، و"رشيد" صامت يتأمل ويتذكر "ناصرًا" وجرأته ومغامراته التي لا يدري أين سيصل بها، كما تذكَّر"نوال" المغربية الجميلة التي لم يلتق بها منذ أيام، حيث اضطربت الأجواء، بجرائم القتل المتلاحقة وبأيام متقاربة، حيث وجدوا جثة ابنها المعتوه، وبعدها انتشر خبر اغتيال الأستاذ الجامعي على مرأى من عيون جارته "رواء"، ثم الجريمة التي هزَّتهم جميعًا وهي قتل عائلة في رأس الزقاق، تتألف من ثمانية أفراد.. تذكَّر تناقضات حياته، ودراسته، وفصول الإثم الذي عاشه بتأثير الحرب، حين كان يرسم معادلاً موضوعيًا غريبًا لحياة الجيش، فيقضي أكثر أيام إجازته في بيت اللذة الحرام، مستبدلاً فيها الأرض الحرام، لن ينسى تلك الأيام التي لن يصدقها أيٌّ من معارفه وأصدقائه وأقاربه لأنهم يعرفون رفعة خلقه ودماثته، وكياسته، وهكذا ظلَّ هذا الإثم سريًا في حياته، يولّد لديه دائمًا الإحساس بالندم والأسى أيضًا.

أخذته الأيَّام بعيدًا، وقرَّر أن يقصد منذ صباح الغد صديقه "ناصر" ليتجوَّل معه، وليسمع منه أخر ما حدث، في بلادنا الجريحة، ويعرف أيضًا، أخبارًا عن "سهام " وزوجها، الذي لم يعرف عنه حتى الآن أنه أنتشل جثة منتفخة من نهر دجلة، عبثت بجسده الأسماك، وهو يتفسَّخ الآن في ساحة الطب العدلي بعد أن امتلأت الثلاجات العفنة بالجثث المنسية، لأناس كانوا قبل أيَّام يمرحون على عشب الوطن النازف !.

(٢٧)

شعرت "نوال" بالحزن الشديد المزدوج على ما مرَّ بها في الأيَّام السابقة، فهي قد خرجت وهي تحمل جبالاً من الذُلِّ والعار من شقة الشباب الثلاثة المتهورين الذين أذاقوها امتهانًا واحتقارًا شديدين لم تشعر بمثلهما في حياتها كُلِّها، وبعد أن انتهوا منها، وفعل معها الشاب الأخير ما حلا له من شذوذ، رموا عليها رزمة من نقود، شعرت معها ببخس ثمنها، ثم تركوها لتغتسل على عجل، ثم ترتدي ملابسها، وطلبوا من سائقهم الشاب الخدوم الثرثار أن يرميها في مكانٍ قريب، لتذهب إلى أصحابها، وتعمل ما يحلو لها، فقد أخذوا منها ما يريدون.

أخذها الشاب بسيارته، وقضى الطريق وهو صامت لم يتفوَّه بأية كلمة، فيما ظلَّت هي صامتة على وجهها تطفح ملامح الغضب المكبوت. وصلا إلى ساحة الطيران، أوقف السائق السيارة وقال لها بلهجة جافة: تفضلي، نراكِ بخير. بقيت لحظات صامتة، ثم فتحت الباب، حيث كانت تجلس بجانبه، ثم نزلت وأغلقت الباب بقوّة تفصح عن غضبها، فيما تحركت السيارة سريعة عائدة إلى مقر الشابين الآخرين.

كما أن عودتها من بيت "عملها الغريب" قد شهدت خبر وفاة ابنها الذي قُتل من قبل مجهولين ودُفن دون أن تراه، هي التي لم تره شهورًا بسبب وضعه النفسي وما آلت إليه حياة المشرّدين المجانين التي عاشها، لم تسأل عنه، رغم أنها تعرف أنها السبب المباشر لوضعه هذا ولضياع حياته، وجنونه وتشرّده، هو أيضًا ضحيّة لها، لقد كانت تشعر بأنها تستحق العقاب الشديد، وأنها لو ماتت لكان ذلك أفضل من حياة تعيشها بالرذيلة والإحساس بالإثم الصارخ والذنوب التي غرست في مسار حياتها كلّه فأثمرت ندمًا شديدًا وحُزنًا لا يمكن أن يزول بسهولة، ما ذنب ابنها الصغير "نائل" وقد بدأ يدرك تدريجيًا ما تفعله أمه من إثم؟.. ما ذنب ابنتها الصغيرة "ورود" التي بدأ جسدها يتبرعم، وبدأت تساؤلاتها تكبر، وهي بين زميلاتها في المدرسة، ستنهي الابتدائية، عندها ستنتقل إلى المتوسطة، وستسمع ما يخدش سمعتها بسبب، سيقولون لها كلَّ ما سمعوه عنّي مُضخمًا، وستشعر بالذل والعار والوجع الدائم، ما ذنبها؟.

وضعت "نوال" ذاتها في محاكمة قاسية تشعر أنها تستحقها، ومضت باللوم والأسئلة والندم والإحساس بالخيبة واللا جدوى، فكَّرت بالانتحار، لاسيّما أنها تشعر أن جمالها بدأ يفتر، وأنها لن تظلَّ شابة إلى الأبد، فهي تمضي إلى عمر مُحرج لا يسعها معه العمل، فسنُّ الأربعين الذي يلوّح لها يعني العسر في عملها الذي تعتمد فيه على صباها وغنجها وفتوتها وجمالها المغري،

ولكن الانتحار سيترك منها آثارًا أكثر إيلامًا، وجريمة إنسانية بحق صبيٍّ وصبيَّةٍ، لا ذنبَ لهما في كلِّ حياتهما سوى أنهما نزلا من رحمها.

أخذت تبكي بصمت، وتأملت نفسها في المرآة، واتخذت قرارًا يلائم وضعها ووضع ابنها وابنتها، وهو ترك المحلّة، بل ترك بغداد كلّها والذهاب إلى مدينة لا يعرف عنها أحدٌ فيها شيئًا، ثم تبدأ من جديد حياة، لا إثم فيها ولا أخطاء، تعمل على تربية ولدها وابنتها، وستحاول تغيير حتى اسمها، كي تبتعد عن الشبهات، وعن عارٍ رافق حياتها مثل ظلٍّ كريه.

بدأت تحصي ما لديها من مدَّخرات، وفكَّرت في مدينة تؤويها، خطر في بالها شمال العراق، فالفُرص في هذا الإقليم المستقر أكثر منها في غابات بغداد، ثم أنها لا تعرف أحدًا هناك، ولا يعرفها أحدٌ أيضًا، ثم أنها لا تجيد اللغة الكردية، وستتعامل معهم تعاملاً محايدًا مسالمًا، ستبحث عن سكن ملائم للإيجار، ثم تبحث عن فرصة عمل شريفة، وتحاول أن تأخذ ما يؤيد المرحلة الدراسية لكلٍّ من ابنها وابنتها، ليواصلا الدراسة والحياة بعيدًا عن المنغصات المحتملة والمتوقعة والتي تمس اللحم الحيَّ من كرامتهما.

وهكذا، أخرجت ما ادَّخرته من مال، إضافة إلى المال الذي قُدِّم لها كواجب يدفع لقراءة فاتحة ابنها المتوفى "جابر" المعتوه،

وقرَّرت أن تبيع ما يمكن بيعه، وأن تهيئ نفسها للانتقال، وستحاول أخذ تأييد غير معنون لجهة ما من مدرستي نائل وورود، كي لا تضيِّع مستقبليهما في الدراسة...

وهكذا، بدأت "نوال" الإعداد لخوض حياة جديدة تبدأها بصفحة بيضاء !.

(٢٨)

بعد عدة أيَّام من الإجازة القسرية، قضاها "عامر" في البيت، قرَّر في أحد الصباحات التي تُنبئ عن هدوء أن يخرج من البيت ليقصد موقع عمله، ومن فرط خوفه مما حصل، ومن المؤكد مما سيحصل من أحداث مؤسفة، اضطر لحمل مسدس صغير، أخفاه بين طيَّات ملابسه، وهذا المسدس حصل عليه منذ مدة طويلة، ولم يُطلق أيّة رصاصة منه منذ أن حصل عليه حتى الآن، ورغم أنه يُعيد إدامته بين مدة وأخرى، إلا أنه لم يستعمله أبدًا، ولا يدري أيعمل حقًا في الأوقات الحرجة أم أنه سيخذله؟ ومع هذا، فإنه وحين لاحظت "رواء" إخراجه لمسدسه وإخفائه في ملابسه، طلبت منه إعادته، فهو لا يسبب له إلا المتاعب، ولا يحميه، لأن المجرمين يمتلكون أسلحة أمضى، وما عليه سوى الحذر والابتعاد عن مناطق الخطر المتوقعة، ابتسم "عامر" بوجه أخته الشاحب من القلق والحزن والترقب، وودَّع أخاه وقبَّل يد أمه، وخرج مشيًا ليقطع المسافة التي تعوَّدها بين المحلة التي يسكن فيها والمزرعة الكبيرة التي تقع بينه وبين الشارع العام، وقد شعر بالحزن والإكتئاب والاشمئزاز معًا حين شاهد قِطَّة ميتة وقد بُقرت بطنها، وخرجت أحشاؤها، وهي ملقاة في الممر الضيق الذي يفصل المنازل عن المزرعة،

وبحركة لا إرادية تحسس مكان مسدسه ومضى في طريقه، وما أن دخل الطريق الترابي الذي يفضي إلى المزرعة حتى شاهد بقع دم تمثّل مسارًا متواصلاً تدلُّ على جريمة قتل قريبة، وفعلاً فقد شاهد جثة رجل غريب غائبة الملامح مشوَّهة الوجه، والجثة لرجل يرتدي ملابس الشرطة، وهي ممزقة إثر طعنات سكاكين ملأت جسده، وتذكَّر على الفور اكتشافه قبل أيام لجثة "جابر" المعتوه، ولكنها كانت في موقع آخر، وملامحها واضحة، فيما شُوِّهت ملامح هذه الجثة، وألقيت في طينٍ نمت فيه أعشاب قصيرة... أسرع مشيه موسِّعًا خُطاه، مبتعدًا عن الجثة باتجاه الشارع العام، وتلفَّت خلفه، فشاهد شريط منازلهم النائمة التي هي غير معنية بما يحدث خلفها من جرائم ومآس، حيث تبدو هذه المزرعة؛ وفي الليل تحديدًا؛ خارج مفهومي الزمان والمكان، لِمَا يحدث فيها تحت خيمة الظلام والعزلة والأشجار الكثيفة. ولأول مرة شعر "عامر" بالخوف الحقيقي، وهو يواصل سيره بين الأشجار ويتطلَّع إلى السيَّارات العسكرية المعطوبة المكشوفة التي نُهبت أجزاؤها، والتي كانت قبل شهور تحمل صواريخ وعتادًا ثقيلاً، أسرع الخطو وكأنه يركض، حتى شعر بأن المسافة إلى الشارع الرئيسي أصبحت أطول مما هي عليه، ليصل أخيرًا وهو مُجهد يلهث إلى الشارع العام، ليُفاجَأ بوجود أربع سيارات عسكرية أميركية من نوع "همر" وهي متوقفة في الشارع العام، وقد ترجَّل منها جنودها

بهيئاتهم المفزعة، وما أن رأوه خارجًا من بين الأشجار، حتى نادوا عليه آمرين إيَّاه بالتوقف، وقد قال له مترجمهم، الشاب العراقيّ الذي يخفي ملامحه بلثام أسود، أن يرفع يديه ويتوجه بهدوء نحوهم، امتثل "عامر" للأمر وشعر بسرعة نبضات قلبه وارتباكه، سألوه من خلال المترجم:

• من أنت؟

- أنا من سكان الدور الواقعة في الجانب الآخر من المزرعة.

• ماذا تفعل هنا؟

- أريد الذهاب إلى عملي

• وما هو عملك؟

- أعمل في محل لبيع المواد الكهربائية قريب من هنا.

• هويتك؟

أخرج بطاقته الشخصية من جيبه بيدٍ راعشة وسلَّمها إلى الجندي الأميركي، الذي تطلَّع بها، وشاهد مطابقة الصورة للوجه الذي أمامه، وحين تأكد منه؛ أعطى الهوية الشخصية للمترجم، ثم عاد لاستجواب "عامر" من خلال المترجم أيضًا والذي أبقى البطاقة في يده.

• هل تحمل سلاحا؟

أجاب على الفور :

- كلا.. كلا !

• لا بأس.. الشارع مقطوع هذا الصباح، لوجود جريمة قتل، عليك أن تقطع الطريق مشيًا، حتى مفترقه، ثم تصعد من هناك في أقرب سيَّارة لتغادر المكان.... هيَّا، اذهب بسرعة.

سلَّمه المترجم بطاقته الشخصية، وقد شعر بالحصول على حريته بأعجوبة لم يتوقعها، كما شعر بأن المترجم من منطقته ويعرفه حق المعرفة، وربما أخبر الجنود الأمريكان بذلك وبالذات محدّثه، وإلا لما تركوه بهذه السهولة، بل ربما وجهوا تهمة له، أو أبقوه معهم حتى يتأكدوا من براءته وعدم مشاركته بأي عمل ضدهم. المهم، شعر بالارتياح الشديد، وهو يتحسس موقع مسدسه الصغير الذي كاد أن يسبب له مشكلة بمجرد تفتيشه البسيط لملابسه، أسرع الخطو، دون أن يلتفت إلى الخلف، وكأنه حصل على غنيمة حقيقية، يخشى أن تؤخذ منه في أيّة لحظة.

حتى وصل إلى مفترق الطرق، الذي يربط حي العدل بحي الجامعة تحت جسر الخط السريع الذاهب إلى غرب البلاد، حين اختلط بجموع الناس وذاب بينهم، وتساءل مع نفسه : أية جريمة قتل يقصد الجنود الأمريكان، هل هي للشرطي الذي شاهد جثته مشوهة ملقاة في الطين، أم إنهم يقصدون جريمة أخرى؟ وهو لم يجرؤ على التساؤل أو مجرد الحديث عن الجثة التي شاهدها، لأنها قد تسقطه في إحراجات هو غير قادر على مواجهة مفاجأتها.

وهكذا بقي الأمر مبهمًا بالنسبة له، كعشرات الأمور المبهمة التي تحدث هذه الأيام، وظلَّ سائرًا في طريقه، حتى وجد سيارة "كيا" منتظرة راكبين لتمتلئ وتنطلق إلى البياع، صعد فيها وجلس بين رُكَّابها وكأنه وجد منفذ خلاصه.

وقد مرَّ بسيارتهم الواقفة عددٌ من سيارات الإسعاف وسيارات الشرطة وهي تزعق وتصيح، ثم قُطِع الشارع إثر انفجار عبوة ناسفة قريبة منهم، وحدثت جلبة من جديد، وأطلق الرصاص بجنون وعشوائية، وظلت سيارة الكيا مع ركابها على وقوفها في مكانها لأنه الأكثر أمانًا من الانكشاف في الشارع.. ارتفعت أعمدة الدخان، وازداد المشهد توترًا، قال "عامر" مع نفسه: أيُّ يوم غريب هذا، وأيُّ عمل أحتمله في مزاجي السيئ، في صباح مثل الذي أشهدُه الآن؟.

(٢٩)

بدأ "رشيد" بملاحظة التغيُّرات التي طرأت على حياة "نوال" فهي لم تعد تتحدث إليه بغنج وحركات مثيرة مغرية كما في السابق، بل صارت في حديثها في المرَّات التي يلتقيان فيها مصادفة في رأس الزقاق، تتصرف بجدية واحترامٍ عالٍ، وهي تخفي كلَّ ما يشير إلى طبيعة جسدها وتفاصيله التي كانت تتباهى بها عند لقائها "رشيد" تحديدًا.

لاحظ "رشيد" حين التقاها صباح أحد الأيام الشتوية الباردة نسبيًا، أنها تحمل ملفات من ورقٍ مُقوَّى، حدس أنها إزاء معاملة ما في الدوائر الرسمية التي ما زالت قلقة مرتبكة في موظفيها ودوامهم ، وبالتالي فأنها مرهقة في مراجعتها، فأبدى رغبته الجدية في مساعدتها إن رغبت هي في ذلك، فقالت له: الأمر لا يستحق، فأنا منذ أيَّام أسعى في معاملة نقل "ورود ونائل" إلى مدارس أخرى، في مدينة غير بغداد.

استغرب "رشيد" قولها وقال متسائلاً:
لكن الدوام المدرسي ما زال مستمرًا، ثم ما هذه المفاجأة يا أم جابر، هل تنوون الانتقال إلى مدينة أخرى؟

قالت "نوال" بأسى : نعم، سننتقل، وأرجو أن لا يعرف أحد من الجيران بهذا الأمر، إلا بعد رحيلنا، فأنا كما تعلم أرملة وحيدة ولا أستطيع مواجهة غابة المجتمع في بغداد، فقرَّرت أخذ أولادي إلى مدينة أخرى، ليبدءوا حياتهم من جديد، وأنا على وشك إنجاز معاملتيّ نقلهما، وسيكون رحيلنا في عطلة نصف السنة التي ستبدأ بعد مدة وجيزة، نعم لقد أرهقوني في المعاملتين، ودفعتُ رشاوى، وتوسّلتُ، حتى حصلت على موافقتي النقل، أكرر رجائي لك أستاذ رشيد في أن لا يعرف أحد أمر هجرتنا، وأرجو أن تعذرني إذا ما بدا مني معك ما يسيء أو يزعج، فأنا امرأة عشتُ حياتي مجهدة مظلومة، إلى اللقاء.

ثم تركته ومضت دون أن تنتظر منه تعليقًا أو ردًّا، فيما بقي "رشيد" ذاهلاً لا يعرف ما الذي غيَّر "نوال" بهذه السرعة، ودعاها للرحيل المباغت هكذا، فيما راودته أفكار وحسابات متنوعة حول وضعها ومصيرها، وفكّر بولدها وابنتها الصغيرين، الذين بدأ كلٌّ منهما يشعر ما يدور حوله، ويرى الإثم الجارح يمشي أمامه على قدمين من ندم.

أفاق "رشيد" من شروده، على توقف مفاجئ لسيارة قديمة مجهدة، سرعان ما نزل منها بصخبه المعتاد صديقه الطريف "زهير" ثم توجَّه لـ"رشيد" وعانقه وهو يهتف له ويقبِّله بحرارة، ثم قال: يا أخي، بحثت عنك وسألت حتى طيور السماء،

وأخيرًا وصف لي صديقك " ناصر" الذي عثرت عليه في مقهى "حسن عجمي " الذي أصبح مقفرًا مظلمًا بائسًا، محل سكنك، وها أنا ذا منذ أكثر من نصف ساعة أدور في المكان حتى عثرت عليك، تعال معي، فأنا أولاً مشتاقٌ إليك، وثانيًا "ناصر" السخيف يقول إنه يريدك في أمرٍ هام.

ركب"رشيد" إلى جانب "زهير"، الذي لم ينقطع عن الكلام أبدًا، ولم يُعطِ رشيدًا فرصة للتعليق أو الاستفسار، فها هو معه، في سيارته، وهو فعلاً كان ينوي الذهاب لـ"ناصر"، أما مجيء "زهير" المفاجئ بسيارته المتهرئة التي قد تتعطَّل في أيَّة لحظة، ويلجأ معه إلى دفعها، فهو أمرٌ مسلٌّ في أقل ما فيه، كما أنه ناقلٌ لجميع الأخبار التي فاتته طيلة غيابه عن أصدقائه، وهو الذي سيوصله لـ"ناصر" الذي يود كلٌّ منهما لقاء الآخر.

وهكذا بدأت نشرة أخبار "زهير" التي أنزلت سيلاً من الدهشة والهلع في رأس وقلب "رشيد"، وأوَّل الأخبار هو انتحار "حازم الوافي" بعد أن تركته "سهام" وسافرت إلى دولة أخرى، أما أخباره الأخرى، فمرَّت دون أن يصغي "رشيد" لها، وهي عامة وردت في ثنياتها مفردات، مثل رواتب ودولارات وسفر، وضحايا، وسوق، وجيش وتقاعد، وغيرها.. ثم تنبَّه "زهير" لشرود "رشيد" وقال له بشيء من الجدية: أعرف أن نبأ انتحار "حازم" أثّر فيك، يا أخي لقد كان سكيّرا، وربما سكر على

ضفاف النهر فأخذته الأمواج، لكنه تدارك قوله: ولكن شاهده بعض المارة على الجسر وهو يلقي نفسه في النهر، هكذا قال لنا المخبرون، هل تصدِّق يا رشيد، حازم، الهزيل، الجبان في أكثر حالاته، يلقي بنفسه في النهر، من الجسر؟

قاطعه "رشيد" بانفعال وحزن بادٍ : يا أخي لا تنهش لحم الناس، واذكر محاسن الموتى، ثم كفاك كلامًا، وانتبه لطريقك.

توقف "زهير" في مفترق الطريق في منطقة العلاوي، وقال لـ"رشيد": إذا تضايقت مني اذهب إلى صديقك فهو ينتظرك في المقهى، وما عليك مني، فأنا أصبحت مُزعجًا لحضرتك.

قال "رشيد" معتذرًا : لا.. يا صديقي، أنا أمزح معك.

قاطعه "زهير" بمرحه المعتاد: أنا الذي أمزح معك، لقد نفد البنزين من سيَّارتي وعليَّ التوقف، وعليك الذهاب ولو مشيًا على قدميك، أما أنا فسأتدبر أمري وألحق بكما إلى المقهى، لا تهتم، اذهب فأنت تعرف "ناصر" إنه ملول وربما نتأخر عنه فيظن أننا متخلفان عن موعدنا معه، حاول "رشيد" الانتظار مع صديقه إلا أنه رفض، وأخذ يدفع بيده، ليتركه وحده.

امتثل "رشيد" لطلب "زهير" وتركه وحيدًا في الشارع مع سيَّارته القديمة، ربما يحصل من ابن حلال عابر على كمية من البنزين توصله للمقهى، ثم تُحل أزمته هناك بطرق شتى، ويحصل على البنزين الكافي، فضَّل "رشيد" وهو يلاحظ الزحام الشديد الذي يعمُّ المكان أن يذهب سيرًا على قدميه إلى المقهى،

وبدأ مسيره بالإطلالة الحزينة ثانية على بناية المتحف العراقي التي تئنُّ إهمالاً وشكوى، وقبل ذلك كان قد تطلّع بعينين دامعتين لمرآبي نقل الركاب الذين يليان المحطة العالمية لسكك الحديد، حيث تنام القطارات التي توقفت، وصدئ معدنها، فيما تفجع بناية المحطّة التي تُعدُّ من أجمل وأبهى البنايات المعمارية في بغداد، حيث قُبَّتها الكبيرة وأبنيتها الواسعة التي تتوسط قلب العاصمة، فيما يقع قبالتها الجامع الأشهر في المكان وهو جامع "ابن بنيّة" الذي شهد توافد حشود من الجنود العائدين من جبهات الحرب جرحى أو مجازين أو هاربين، كما شهد استعداد حشود أخرى للالتحاق بها، كانوا يمرّون للراحة والاغتسال وبعضهم لأداة الصلاة، والبعض الآخر للخلود للنوم، استعدادًا للجولة القادمة. وبجوار الجامع يقع المرآب الشهير لنقل المسافرين من بغداد إلى مُدن الفرات الأوسط، كربلاء والنجف وبابل والديوانية، وكذلك للضواحي التابعة لبغداد أو القريبة منها. أما المرآب المقابل لها والمحاذي المحطة العالمية، فهو خاص بنقل المسافرين من بغداد إلى مدن الشمال عدا مدن إقليم كردستان؛ فهي تنطلق من كراج النهضة الشهير أيضًا، أما من هذ١المكان فتنطلق سيَّارات الموصل وصلاح الدين وسامراء وبعض الضواحي القريبة منها. أما مرآب النهضة، فهو الأشهر بينها، والذي تنطلق منه الحافلات الكبيرة والصغيرة إلى مُدن الجنوب البصرة والناصرية والعمارة والكوت، وكذلك مُدن

كردستان دهوك وأربيل والسليمانيّة ومعهم كركوك، وهو مكان شهد حشودًا من المسافرين والجنود الذاهبين والقادمين من نيران الحروب المتواصلة في البلاد الجريحة النازفة دومًا.

تمشَّى "رشيد" وهو يلقي نظرة أسى على المكان، وتجاوز المتحف، ثم سلك الرصيف المحاذي لبناية بريد بغداد، والمؤدية إلى مستشفى ابن البيطار لجراحة القلب، ثم مكاتب نقل المسافرين إلى دمشق وعمَّان في الصالحية، وهي تقع على جانبي شارع الصالحية، وتبدأ من نهاية بناية المتحف الوطني من اليسار، ومن نهاية مستشفى ابن البيطار من اليمين، وهذه المكاتب اشتهرت ببعض ممارسات النصب والاحتيال على الكثير من المسافرين، كما أن بعضًا منها ضمَّ أقسامًا لصيارفة العملات الأجنبية.

وفي هذه المنطقة تقع بعض محلات صُنع الأثاث وغُرف النوم الخشبية، ومعارض بيعها، كما تقع في نهاية الشارع، الساحة التي وُضِع فيها تمثال "الملك فيصل الأول" ملك العراق، والذي يرتدي اللباس العربي، ويمتطي حصانه وكأنه يلقي تحيته على القادمين، وتقع على يساره دائرة تابعة لوزارة الداخلية، وهي بناية جميلة تغلّف طوابقها المرايا الزجاجية، وتقع مقابلها بناية وزارة العدل التي تغلّف جدرانها وطوابقها المرايا الزجاجية أيضًا مما يجعل المكان المقابل للشارع القصير الذي يبدأ بالمبنى الشهير للمؤسسة العامة للإذاعة والتلفزيون، وينتهي

بفندق المنصور، الذي يقابل بناية مسرح الرشيد الذي تعرَّض للإحراق والدمار وسرقة ما تبقى من محتوياته، وكأنه مكان سياحي خاص لا علاقة له بالمباني القديمة التي تحيطه.

في المكان الذي يقابل وزارة العدل، هناك نكهة خاصة في موقع صغير تتجسَّد فيه الحركة الدائمة والنشاط الدائم، وهو يكاد أن يكون خاصًا بالعاملين في الإذاعة والتلفزيون، وهم مجموعة من الفنانين المتنوعين في أعمالهم، مع الشعراء وكُتَّاب البرامج والمذيعين، وهم يقضون أوقات فراغهم وانتظارهم في المقاهي والمطاعم والأسواق والمحلات المتنوعة التي بينها مكاتب الاستنساخ واستوديوهات التصوير الفوتوغرافي، أمَّا أذنًا الجسر الذي حمل تسمية "جسر الأحرار" فهي خاصة بعربات الأسماك ومطاعمه المتنوعة، التي تفضي في يسار الجسر إلى محلّة الشواكة التي تعدُّ إحدى أقدم محلات بغداد القديمة وهي التي تبدأ بالسفارة البريطانية المطلة على ضفة النهر والتي تطلُّ على جزء من شارع حيفا، وهو الشارع الذي يبدأ بساحة الملك فيصل ويمتد بين سلسلة من العمارات السكنية المتقابلة حديثة البناء، فيما توسطها صرح "مركز صدام للفنون" الذي يُمثّل بناءً عمرانيًا جميلاً شهد معارض فنية متنوعة منذ ثمانينات القرن العشرين والذي تحوَّل اسمه إلى "مركز بغداد للفنون ".

عبر "رشيد" جسر الأحرار وكانت عيناه تتنقلان بين نوارس النهر التي يطلُّ عليها من نافذة جرحه وذاكرته التي أشعلها الماء وهو ينزل بقسوة.. عبر إلى الجانب الآخر، حيث تصرخ إعلانات بيع التجهيزات الرياضية وكأنها تظاهرة دائمة، أو كرة تنطلق في فضاء لعبة كرة قدم محلّقة، وهي تقابل المحلات التي تفضي إلى شارع النهر الشهير في بغداد، وهو الذي كان يعج بفتيات بغداد الجميلات، وهذه المحلات أقيمت على أنقاض حانة كانت تجمُع مثقفي العراق وصعاليكه وهي حانة "شريف وحداد" التي انهارت بعد أن فرغت من مرتاديها ومحتواها حين صار الترنح في أجواء بغداد طقسًا ممنوعًا محرَّما. ثم هناك المُثلث الكبير الذي يضم ساحة واسعة تتجمع فيها مكاتب أخرى لنقل المسافرين من بغداد إلى عمان ودمشق، وهذا المثلث، يربط بين شارعي الرشيد والجمهوري، هذين اللسانين الطويلين والشريطين الملونين بالأبنية والناس والمحلات والباعة والعتالين والعربات، هما من الشوارع اللائي يربطن بغداد كحزام جميل على خصرها الرشيق.

توجَّه "رشيد" إلى اليسار، حيث شعر بنفسه تنسكب بين البنايات العالية، التي تُمثّل تاريخًا مثيرًا للعراق وحمّى سياسته، هنا جرت محاولة اغتيال الزعيم "عبد الكريم قاسم"، هذه البنايات شهدت اختفاء مغتاليه، وهنا الساحة التي شهدت الحادثة، كانت قد شهدت تمثال "عبد الوهاب الغريري" أحد

المشاركين في العملية وقد قُتل فيها، وأعيد تمثاله مرتين، بعد أن كان في المرة الأولى مُشَيَّدًا بشكلٍ رديء، وهو الآن منبوذ مستفز للشارع العراقي.

ثم يأتي السوق العربي، الوجه الخلفي لسوق الشورجة الكبير، والذي يواجه البناية المحصنة للبنك المركزي العراقي ذي البناء المدهش الجميل، ثم السوق الذي يؤدي إلى ساحة الرصافي، حيث يشمخ فيها تمثال شاعر عراقي له أثره الواضح في الأدب العراقي مطلع القرن العشرين، وهو الذي يواجه نهر دجلة، إذ تفصله عن جسر الشهداء ذي الذراعين الجميلين الأول يمتد إلى سوق السراي ومنه إلى شارع المتنبي، والثاني إلى شارع النهر والمدرسة المستنصرية، التي تقابل بنايتها، مجموعة من المحلات التراثية الصغيرة التي تبيع المسابح الثمينة واللقى والتحف والصور التراثية والسجادات القديمة القيمة، شعر "رشيد" بأن الرصافي ما زال يلقي قصائده الجميلة المحفزة على الشهداء الذين سقطوا مقابل الجامع المحاذي للشاطئ، هذا الجامع الذي أطلق منه الرصاص على المتظاهرين ضد الحكومة.

وأخيرًا، وبعد أن قطع القطعة الصغيرة من الشارع الذي يفضي إلى شارع المتنبي، واجه جامع الحيدرخانة، ثم توجه إلى مقهى "حسن عجمي" ودخله مُلقيًا السلام على الجالسين فيه وكأنهم أشباح تغرق في ظلام غريب، ولم يجد "ناصرًا" بانتظاره، بل

توجَّه إليه لحظة دخوله المقهى صاحبه الرجل الطيب السمين ذو الابتسامة المحببة "أبو رشا"، وقال له: أهلاً برشيد، كيف أحوالك؟.. لقد ترك لك صديقك الأستاذ ناصر هذه الرسالة، بعد أن انتظرك طويلاً، وقد يئس من الانتظار وقد لاحظتُ على ملامحه القلق الشديد... وسلَّمه ورقة صغيرة مكشوفة مكتوب عليها بالخط الأنيق لناصر:

" صديقي الغالي رشيد

محبتي وقلقي أيضًا

لا أدري هل أراك في الأيام القادمة أم أن مجريات قدرنا القادم لن تسمح لك بذلك.

كنت أودُّ أن أخبرك عن مستجداتٍ في حياتي، لعلك تكون في بعضٍ مما يمكن أن نشترك فيه من مشاريع مهمة، ولكن لا أدري حقًا كيف ستجري الأمور، فأنا من جانب آخر أمرُّ بمتاعب معقدة، سببها علاقتي بالمرأة التي لي علاقة سرية بها، سأسعى للقائك، وسأكون غدًا في مقهى "حسن عجمي" إن أراد الله تعالى ذلك، فإن لم أحضر فاعلم أنني أمرَّ بمحنة، وربما لن تراني بسببها ثانية، محبتي كلها، وعليك الحذر والانتباه لنفسك في حقل الألغام المرعب الذي نسير فيه.. دمت لي..

صديقك

ناصر سامي "

حين انتهى "رشيد" من قراءة رسالة صديقه "ناصر" شعر بالقلق، لأن "ناصرًا" مغامر في حياته كلّها، وربما سقط هذه المرّة في فخٍّ لا يستطيع مجاراته أو الخلاص منه، إذن سيعود غدًا للمقهى، وسيعرف من "ناصر" كل التفاصيل، بما فيها "المشاريع المهمة" التي أشار إليها.

طوى "رشيد" الرسالة، وشكر "أبا رشا" على لطفه وأمانته، وقال له: سأعود غدًا إن شاء الله، إلى اللقاء.

ثم استدار وعاد إلى الشارع ليبدأ مشوار عودته إلى البيت.

(٣٠)

بينما كانت "رواء " تستعدُّ للخروج من المنزل، لتقصد كُليتها، فالامتحانات الفصليَّة مُوشكة على البدء، وعليها أن تواكب المنهج المُقرر، وأن تتابع المحاضرات التي فاتتها؛ شاهدت أخاها "حسام" وهو يتهيأ للخروج من البيت، فبادرها بالقول: انتظري قليلاً يا رواء، سأوصلك إلى كُليتك، في سيَّارتي، وسنمرُّ بصديقتك "سحر" لنصطحبها معنا، وقولا لسائق الخط الذي تعاملتما معه، أنكما معي، في سيَّارتي.. فما رأيك؟

فوجئت "رواء" بما قاله أخوها، وهو الجالس في البيت بلا عمل مدة ليست قصيرة، ثم قالت له: ومن أين لأخي الحبيب هذه السيَّارة؟

فقال لها بمرح وانتشاء: يا أختي العزيزة الرائعة، أنا الآن أعمل سائق سيَّارة أجرة من الطراز الحديث وهي تعود لصديق لي، سأعمل فيها، وستكون أجرتي الأولى منكِ أنتِ وصديقتك، وسأدفعها أنا بدلاً عنكما احتفالاً ببدء العمل.

قالت "رواء" بارتياح: لكننا كما تعلم متفقتان مع سائق قريب لـ"سحر"، بعد أن عانيتُ مرارات الذهاب والعودة، مرة توصلني أنت ومرة أخرى عامر، حتى اتفقت مع سحر على مشاركتها الخط وانتظار كلّ منا الأخرى في حالة تفاوت موعدي خروجنا،

على أن نذهب إلى الدوام في وقت واحد، وأنا متهيئة الآن لتمرَّ عليَّ بالسيارة التي تقلنا.

- إذن عندما تأتي اعتذري منها هذا اليوم لأوصلك، هاه، اتفقنا؟

قالت "رواء" : اتفقنا، ولكن متى تأتي سيّارتك العزيزة؟

قال لها : هي في الطريق حتمًا.

وبعد انتظار قليل، طرقت الباب صديقتها "سحر" فخرجت "رواء" وأخبرتها بأن أخاها سيوصلها هذا اليوم بالسيارة التي بدأ العمل سائقًا فيها، واعتذرت عن مرافقتها، فمضت "سحر" إلى الجامعة قبل صديقتها، فيما ظلَّت "رواء" منتظرة، وفي داخلها إحساسٌ غريبٌ بأن شيئًا ما سيحدث، بعد أن افترقت عن صديقتها وظلَّت بانتظار السيارة التي ستأتي لأخيها كي يوصلها، وبدأت بالرواح والمجيء قلقة، وهي تنظر تارة إلى الساعة المعلقة على حائط غرفة الاستقبال، وتارة في الساعة التي في يدها، فيما خرج "حسام" ووقف في الباب منتظرًا إطلالة السيَّارة التي شعر بأنها قد تأخَّرت حقًا، وقد يُحرج مع أخته التي ربطها به.

لكن السيَّارة جاءت متأخرة عن موعدها بأكثر من ساعة، الأمر الذي أثار "رواء" وأخذت تعاتب أخاها، الذي لولاه لكانت وصلت منذ زمان مع صديقتها، لكن "رواء" لم تكن تعلم أن صديقتها لم تصل الجامعة قبلها !، بل لن تصل أبدًا !... لأنها

تعرّضت في الطريق لعبوة ناسفة حطّمت السيارة وأحرقت "سحر" مع قريبها السائق الحكيم الكيّس، الذي لم يستطع فعل شيء إزاء أمرٍ قدريٍّ لا فرار منه.

وركبت "رواء" السيَّارة، في المقعد الخلفي، فيما جلس صاحب السيَّارة، بجانب صديقه السائق أخيها، وهو يكرِّر اعتذاره منهما، بكل أدب وإحساس بالذنب، وقال لهما بأن الطُرق مزدحمة هذا اليوم وأن هناك عددًا من الانفجارات التي توزعت على عدد من مناطق بغداد وقطعت بعض الطرق، مما ولَّد زحامًا غير طبيعي في المدينة كلّها.

ومضت السيَّارة في طريقها إلى الباب المعظم، هدأت "رواء" تدريجيًا وهي تلاحظ الارتباك والفوضى اللذين يعُمَّان المدينة، وشعرت بوجود العذر لديها لو تأخَّرت عن محاضرتها الأولى، فالدنيا صاخبة مجنونة مكتظة بالأحداث، ثم أن الطرق مزدحمة حد الاختناق، فيما ولَّد لديها خبر الانفجارات التي حدثت في أكثر من مكان في بغداد قلقًا كبيرًا؛ وبالذات على صديقتها التي ذهبت إلى الجامعة هذا اليوم وحدها، لا تدري حقًا كيف تطمئن عليها، ولكنها حين تصل الكليَّة ستعرف أخبارها حتمًا، وستعود معها في سيارة قريبها الرجل الوقور الذي يعمل سائق سيَّارة أجرة، واتخذ من سيَّارته خطًّا ثابتا لنقل "سحر" وصديقتها "رواء" بأجر شهري مناسب تشترك الصديقتان في دفعه له.

وبعد طريق شاق وهواجس وتوقفات كثيرة، وصلت "رواء" إلى مبنى الجامعة، وشكرت "حسام" وصديقه، وأخبرته أنها ستعود مع صديقتها فلا يكلف نفسه عناء العودة إليها. ثم مضت السيَّارة ليوصل بها "حسام" صديقه صاحب السيَّارة إلى مبتغاه ثم يبدأ عمله فيها.

شعرت "رواء" حين وصلت كُليتها بأمر غريب، حيث ركض الطلبة والطالبات باتجاهها وهم فرحون بها، وكأنهم لم يشاهدوها منذ أعوام، بكت زميلتها "هدى" وهي تقبِّلها بحرارة، فيما ذهلت "رواء" وهي لا تعرف ماذا يجري...

قال لها أحد زملائها: الحمد لله على سلامتك يا أختنا العزيزة!.

قالت بذهول: حدِّثوني ما الأمر، لقد بدأت أقلق قلقا حقيقيًا؟!

قالت هدى: سمعنا شائعة تقول إن السيارة التي تقلكما أنت وصديقتك قد احترقت في انفجار شارع "حيفا"!.

قالت "رواء" بدهشة وأسى مفاجئ خرجت فيهما عن مألوف سلوكها بين زملائها وزميلاتها :

مممممممممممممممماذا؟.. احترقت السيَّارة؟.

ثم سقطَّت على الأرض مغميًا عليها.

ذهل الطلبة، وسارعت زميلاتها لحملها إلى إحدى المصاطب، وجلبوا الماء فغسلوا وجهها الذي استحال إلى قطعة صفراء، ثم أنهضوها تدريجيًا، ليعود لها وعيها، وما أن فتحت عينيها

وانتبهت حتى راودتها نوبة من بكاءٍ حارق، وهي تضرب وجهها وتصرخ باسم صديقتها "سحر" التي لاقت حتفها بالانفجار.

لم يداوم زملاؤها ذاك اليوم، وتطوَّعت "هدى" مع زميلة ثانية لأخذ "رواء" إلى بيتها والاطمئنان على وصولها، فهي منهارة وبحالة نفسيَّة سيئة وحزن حقيقي على الرحيل المفاجئ المأساوي لأقرب صديقة لها.. وفي الطريق إلى البيت، حيث جلست "رواء" بين صديقتها "هدى" والصديقة الثانية "مياسة" التي رافقتهما في السيارة الصغيرة التي استأجرتها "هدى" لنقل "رواء" المنهارة، كانت "رواء" تستعيد شريط حياتها مع صديقة العمر، تلك التي شجَّعتها وجلبتها بيدها لتحقيق حلم إكمال دراستها، "سحر" التي أجَّلت حتى الإنجاب، كي تحصل على الشهادة الجامعية وتمارس مهنة التدريس، يا لها من مضحية، حيث أنها تركت بيتها الذي يشهد مراحل بنائه الأخيرة، وتركت مصيرها العملي الذي خطَّطت له وبقي لها سنتان دراسيتان كي تصل إليه لتبدأ حياة جديدة، في بيت جديد، تكون فيه "الست سحر" المدرسة في الثانوية، عندها تفكِّر بالإنجاب، وتسعد زوجها الرجل الصبور الواعي المتفهم الذي ضحى بالكثير من أجل راحتها وطموحاتها... يييياه، ما الذي حدث حقًا، هل ينتهي الإنسان بلمح البصر، هل يتحول الإنسان إلى ماضٍ، فيما كان يمرح بيننا قبل ساعات، كيف حدث الأمر؟.

نزلت الدموع بصمتٍ على وجه "رواء" شاردة الذهن، وهي التي كادت أن تكون في العالم الآخر الآن لولا مصادفة حصول أخيها على العمل وقراره الغريب في الإصرار على إيصالها بنفسه، ماذا لو تأخرت صديقتها معها ؟ ولكن من يعلم الغيب؟

وصلت "رواء" إلى البيت وهي بين صديقتيها اللتين أمسكت كلُّ واحدة منهما بيد من يديها، وقاداها إلى الباب، طرقت "هدى" الباب، فخرج "عامر" وشاهد أخته مُقادة من قبل اثنتين من الفتيات اللتين لا يعرفهما، فيما كانت هي يبدو على وجهها الأصفر وذؤابات شعرها التي ما تزال مبللة بالماء؛ بأن شيئًا ما قد حصل لها، صرخ "عامر" بصوتٍ باكٍ: أختي، حبيبتي، ماذا حصل لكِ؟

قالت له "هدى": مرحبًا بك أخي العزيز. أنا هدى زميلتها في الكلية، وهذه ميساء زميلتها الأخرى، لا تقلق على أختك إنها بخير، ولكنها متأثرة من موقف ما.

قاطعتها "رواء" بصوتٍ خافتٍ مخنوق: ماتت سحر يا عامر. ثم أجهشت بالبكاء، وأدخلتها الزميلتان إلى البيت، وكانت أمها العليلة المسنة تجلس في صالة الاستقبال الصغيرة، وما أن شاهدتها "رواء" حتى ألقت نفسها في حضنها، واجتاحتها عاصفة من بكاء.

(٣١)

طُرق المحلة مغلقة، لا أحد يدخل إليها ولا أحد يخرج منها، الحذر والترقب يهيمنان على الجميع، همرات القوات الأميركية المحتلة، توغل باستفزاز السُكَّان واللعب بأعصابهم، المدرعات الكبيرة تدخل بين الأزقة، والجنود الأمريكان بكامل تجهيزاتهم الحربيَّة يدخلون بانتظام شديد وريبة بين البيوت، لا أحد يخرج إلى أبعد من حدود باب المنزل، إنهم يفتشون المنازل عن أسلحة وعتاد، وعن أشخاص يشغلون أجنداتهم، وها هي مدرعاتهم وعرباتهم المستعدة للمواجهة.

سرت الشائعات بين الناس، إنهم يعتقلون من يُخفي شيئًا يشير إلى النظام السابق، مزّقوا الصور والكتب، واخفوا الأسلحة والأشياء الثمينة، فهم يسرقون المال والمقتنيات بحجة التفتيش، ولا تدعوهم يتلصصون على نسائكم، فهم بلا أخلاق ولا قيم، وقد أشيع أنهم انتهكوا أعراضًا ودنَّسوا مقدَّسات، أبعدوا أبناءكم عن مواجهتهم مباشرة في بيوتكم، إنهم لا يرحمون، وها هو أحد الجنود، وبلا خشية من أيّ شيء، يفتح سحّاب بنطاله ويتبّول على جدار أحد المنازل، هكذا هم يشبهون الحيوانات، وقد جاؤوا لبيوتنا لتفتيشها.

شعر "رشيد" بالحيرة والاضطراب، فهو وفق هذه الأجواء لن يستطيع الذهاب إلى صديقه "ناصر" الذي قد يكون بانتظاره في مقهى "حسن عجمي"؛ هذا ما ذكر في رسالته، تلك الرسالة التي تثير القلق الشديد في هذه الظروف الحساسة، لقد نوَّه فيها عن أشياء مثيرة للتساؤل والقلق، ولكن ماذا يفعل، ها هم الأوباش يسدّون المنافذ، ولا مجال للمغامرة بالخروج من محيط المحلّة، إنهم يطوِّقون حتى المزرعة التي تقع خلف البيوت، هناك شيء قد حصل، يقولون أن هناك جنودًا أمريكان وقعوا في الأسر !، وهم يبحثون عنهم، بل جنَّدوا بعض ضعاف النفوس من الشباب ليكونوا مخبرين لهم ويزودوهم بالأخبار والمعلومات عن كلِّ نشاط غريب، وكلُّ شاب يحاول الوقوف بوجوههم، لذلك كانوا يلتقطون بعض الشباب من منازلهم، ويقيدون أيديهم وسط صراخ آبائهم وأمهاتهم وأخواتهم وإخوانهم، ثم يلبسونهم أكياسًا سودا في رؤوسهم، ويكدِّسونهم في حوض سيَّارة كبيرة للحمل، تقول الأخبار أنهم يسجنونهم إمَّا في سجن "بوكا" في الجنوب، أو في سجن "أبي غريب" الشهير، ولا أحد يعرف عن مصائرهم شيئًا.

تقول الأخبار المتناقلة بين الناس أن سجَّانيه من يهود إسرائيل وهم لا يرحمون بأساليب تعذيبهم الحاقدة، وهناك حكايات فظيعة تمَّ تناقلها عن وضع السجناء وكيفية التعامل معهم وعن الممارسات التي يندى لها جبين الإنسانيَّة.

ارتاب "رشيد" وخشي المفاجآت المحتملة، إنه لا يحتمل مواقف لم يحسب لها حسابًا، وهم يتصيَّدون بالماء العكر، وقد يختلقون لك أيَّ سبب فيقتادونك للسجن دون أن تستطيع فعل شيء. انتظر "رشيد" دور منزله بالتفتيش، أبلغ أسرته بأن يصمتوا وأن لا يتحدثوا بأيِّ شيء، مع أيِّ شخص، ويتركونه هو يتصرَّف معهم، ثم أخفى بعض الكتب والصحف التي قد تثيرهم.

ويبدو أنهم قد وصلوا إلى غاياتهم فاعتقلوا من وشي بهم من قبل الوشاة، فأخذوهم ومضوا، ولم يفتشوا المنازل الأخرى وبضمنها منزل "رشيد"، لقد غادروا بعد أن أغلقوا مداخل ومخارج المحلة لأكثر من أربع ساعات، لا يظن "رشيد" أن صديقه القلق بانتظاره لو كان قد حضر في المقهى فعلاً، لا سبيل للاتصال به، لا هواتف إلا الهواتف النقالة من نوع "ثريا" التي لا يمتلكها إلا القليل من الناس، لقد ألغى "رشيد" موضوع الذهاب إلى المقهى، وربما يطلُّ عليه صديقه الطريف "زهير" في مصادفة جنون جميلة وفي سيَّارته التي فرغت من البنزين، وبقي عندها منتظرًا، ومن ثم اللحاق به إلى المقهى، لا يدري "رشيد" هل حصل صديقه على البنزين وتبعه للمقهى، فهو رغم الزمن الطويل نسبيًا الذي قضاه في المشي بين العلاوي والمقهى، إلا أنه لم يجلس حتى في المقهى، فهو ما أن دخل إليه وتسلَّم الرسالة التي تركها له "ناصر" حتى غادر، ولا يدري هل جاء بعده "زهير " أم لا... وسيعرف بعد وقت طويل

من غياب صديقه الطريف، أنه في اللحظة التي تركه فيها، وقف إلى جانب سيَّارته، وهو يحمل غالونًا فارغًا، أملاً منه أن يحصل على كمية مهما كانت قليلة كي يحرِّك سيَّارته القديمة ويمضي إلى أيِّ مكانٍ ممكن، لكنه ظلَّ ينتظر ويحاول الاستعانة بأية سيَّارة مارَّة، حتى جاء رتل للسيَّارات الأميركية، ومعها سيارتان مدنيّتان، فشاهدوا "زهيرًا" قرب سيَّارته، وهو استجمع سذاجته كلَّها، وتوجَّه إليهم، كانوا بظنونه هاجمًا عليهم بغالونه، فمزَّقوا جسده المسكين برصاصهم الفتَّاك وأردوه قتيلاً في الحال، ليظل في الشارع أكثر من ساعتين، حتى جاءته سيَّارة حمل خاصة بالشرطة المحليّة، التي تخصصت في حينها بنقل الجثث مجهولة الهوية من الشوارع والمزابل والأماكن المهملة، حملوه، وغطّوه بصحف قديمة، وألقوه بين الجثث في كارثة جيفة الطب العدلي... عرف "رشيد" هذا الأمر بالمصادفة من أحد أصدقائه الذين تحدَّثوا عن "زهير" المسكين بحسرة.

عاد "زهير" إلى البيت بعد أن توقف قليلاً في رأس الزقاق، أملاً منه في أن يحضر "زهير" ويصطحبه معه إلى المقهى، لكنه عاد يائسًا يجتاحه حزنٌ غريبٌ لا يعرف؛ تحديدًا؛ سببًا مباشرًا له، سوى ما حلَّ من دمار وفوضى.. وبينما هو جالسٌ في غرفة الاستقبال هاربًا من ضراوة الواقع وهو يقرأ رواية سبق أن

قرأها حتى سمع جلبة، خرج على إثرها من المنزل، خرج متسائلاً، فقال له جاره الرجل ذو الخمسين عامًا، هل سمعت يا رشيد أن أحد المراهقين ارتبك وهو يحاول إخفاء سلاحه، فسحب أقسام بندقية الكلاشينكوف التي بحوزته، وضغط على زنادها في لحظة ارتباك فقتل أخته ذات الخمسة أعوام بالخطأ، وهو الآن شبه مجنون بعد أن شاهد مخ أخته وهو يتناثر أمامه، هي كارثة مزدوجة من كوارث الحرب المجنونة.

لم يعلّق "رشيد" سوى بهزة من رأسه تنم عن الاستياء واليأس، وعاد إلى البيت، ليهجم الظلام مبكرًا، وهو ينفث رياحًا شرسة فيها سهام من البرد كأنه يشير إلى قدوم وحوش ستهجم على الناس جميعًا، في ليل تخترق ظلامه شهب الرعب.

(٣٢)

لم تحزن "رواء" مثل هذا الحزن على صديقتها إلا مرَّتين في حياتها: الأولى عند وفاة أبيها لأنها كانت شديدة التعلّق به، والثانية عندما استشهد حبيبها "ماهر" في حرب الثماني سنوات. حزنها على "سحر" كثَّف كلَّ أحزانها، فيما صارت أمها كالتمثال المتحجِّر أمامها، لا تدري ماذا تفعل في مثل هذا الموقف الغريب، فابنتها نجت بمعجزة من موت أكيد، لأنها لو رافقت صديقتها كالمعتاد في كلِّ مرة، لماتت معها، ولكن ها هي ابنتها أمامها حتى شكلها قد تغيَّر من شدة الأسى، ما لهذه الدنيا، وما الذي حلَّ بنا في هذا البلد العجيب الغريب، أيّ كابوس نعيشه جميعًا؟.

"رواء" صامت عن الطعام، وأهلها خضعوا لمراسم حزنها، فلم يضغطوا عليها، بل كرَّروا توسلاتهم بها، يريدونها أن لا تموت كمدًا، كانوا يلقون المواعظ عليها تباعًا، وهي كأنها لا تسمع، ذكَّروها بطموحاتها ودراستها وكليَّتها، فتذكَّرت "سحر" وبكت، هذه الرقيقة كيف احترق جسدها، ترى بماذا شعرت لحظتها، هل تذكرت صديقتها، هل شعرت بالندم لأنها لم تتأخَّر معها؟، ياه يا سحر، لو بقيتِ معي، لو تأخَّرتِ قليلاً، لقد قال "ريمارك"

الروائي الألماني الكبير في روايته " للحبِّ وقت، للموت وقت": (الجندي يعيش بالمصادفة). كان ذلك في المشهد الذي اتفق فيه أحد الجنود مع رفيقٍ له، أن يسلك كلٌّ منهما الاتجاه الذي يختاره في مفترق طُرق أمامهما، فاختار أحدهما طريقًا انفجر فيه لغمٌ عليه فلقي حتفه، أما الثاني الذي سلك اتجاهًا آخر، فقد نجا من الموت، ولو اختار الطريق الآخر لكان هو الميّت.. هكذا الإنسان في العراق، جندي دائم، يعيش بالمصادفة، فلو ذهبتْ "رواء" مع صديقتها للاقت حتفها أيضًا، لكن أخاها أخَّرها فنجت.

هكذا إذن، العالم يبدو الآن أسود أمامها، لا شيء يجلب الفرح، وكلُّ ما أمامها يهددها بحزنٍ يتناسل، قال "عامر": صارت المدينة تظاهرة بلافتات سود، في كل لافتة إشارة لشهيد.

قال "حسام" بتُ أخاف من الدخول في الشوارع الفرعية بالسيارة التي أعمل فيها، الأمور في غاية الخطورة والتعقيد، قتل، وتسليب، ولا وجود لدولة أو قانون، فهناك سيطرات وهميّة في الشوارع متآلفة من مجرمين يرتدون ملابس الشرطة ويفعلون ما يريدون بالناس.

بدأت بعض العوائل تبيع الكثير من أغراضها وتغادر البلاد، وهاجرت العوائل الأخرى إلى مدن بُعيدة أكثر أمانًا، قُتل شباب أمام منازلهم، وقتل آخرون بين زوجاتهم وأطفالهم، فيما خُطف

رجالٌ وأطفالٌ ونساء، وغدت البلاد غابة كبيرة، ولوحة سريالية لا منطق فيها ولا إشارات معقولة لأيّ استنتاج من الممكن أن تشير إليه معطياتٌ ما.

ترك "عامر" عمله، فالطريق إليه صار محفوفًا بالمخاطر، وأدخل "حسام" السيَّارة التي يعمل فيها في مرآب الدار الذي استوعبها بالكاد، معلنًا توقفه عن عمله فيها.

أمُّهم خلدت للصمت والمبالغة بالدعاء والعبادة ونصرة "رواء" الحزينة، التي فتحت النافذة لترى كلَّ الأشياء تتموج أمامها، وكأنها تسبح في دمعة بحجم بلاد كاملة.

(٣٣)

تمنَّى "رشيد" في لحظة احتدام صارخة أن يكون الآن مع "نوال" تحديدًا، هو الذي اشتهاها اشتهاءً حقيقيًا لم يستطع الإفصاح عنه، رغم أنها كانت مُتاحة له، في وقتٍ ساحت فيه الأشياء وغدا العالم مُتاحًا للجميع لا محددات فيه، وهو الذي وقف مع "جابر" المعتوه، ابن "نوال" وخطيئتها الناطقة، وصارا ينبهان الناس على جسامة ما يفعلون، ولم يحصلا على ردِّ فعلٍ سوى الإصرار على ارتكاب الإثم، الذي ولَّد آثامًا عصفت ببلاد، سرعان ما تفتت وغدت خرابًا صعد منه غبار أعمى العيون وأخرس الألسن، وغلَّف الأفئدة بالغِلظة.

"ناصر سامي" كثَّفه الأمريكان في ليلة عسيرة، ولن يلتقي "رشيد" أبدًا، أخذوه إلى حتفه، والأسباب متفاوتة الشائعات.

وكان "رشيد" قد قصد مقهى "حسن عجمي" في اليوم التالي لحصار محلتهم، ذهب إلى المقهى ليعرف ما حصل، دخل فواجه أبا رشا، وحيَّاه وجلس معه، طلب أبو رشا الأركيلة لكليهما، شعر "رشيد" بأن شيئًا ما قد حصل في غيابه أمس، ترك السؤال والحديث إلى ما بعد نفثة الدخان الأولى، حيث بدأ "أبو رشا" بالحديث العام عن مجريات الحياة ومشاكلها فقال:

- ما أسوأ الدنيا، وما أقساها، لم تأتِ أمس يا أستاذ رشيد؟

قال " رشيد" بهدوء حزين: لقد حاصروا محلتنا السكنية، فلم أستطع المجيء، هل حضر ناصر ؟، هل حصل شيء أرجوك أخبرني؟

قال "أبو رشا" ببرود : لا لم يحصل شيء مباشر، ولم يحضر ناصر، لكنه أرسل شخصًا للقائك وإبلاغك رسالة شفوية، لقد انتظر عدة ساعات، حاولت أن أعرف منه فحوى الرسالة، فلم يخبرني، وظلَّ ينتظر، حتى نزل الظلام، ولم يفصح عن رسالته، ولكن كل ما قاله لي أن أبلِّغك تحيات ناصر الذي أصبح في قبضة الأمريكان.

قال "رشيد" بانفعال : والرسالة؟

ردَّ "أبو رشا": لقد ظلَّت سرًّا يا أستاذ.

قال "رشيد": وهل قال لك الشخص الذي انتظرني أنه سيعود لاحقًا ؟

ردَّ "أبو رشا": لا لم يقل ذلك، أظنه لن يعود، ثم أنني لم أره بينكم في المقهى سابقًا.

شعر "رشيد" بالقلق، على غموض ما اكتنف مصير صديقه "ناصر" وخرج من المقهى مرتبكًا قلقًا، شارد الذهن، واجه شارع الرشيد شبه الفارغ؛ رغم أن الوقت ما زال في غضون الظهيرة، شاهد أفرادًا قليلين من الناس، شعر بهم وهم يهربون من وحشٍ خفيٍّ، قد يظهر لهم من أيِّ مخبأ في الشارع.

مشى "رشيد" ودخل شارع المتنبي، الذي يحتفي بالبقايا من الأوراق المتطايرة والمحلات المهجورة، شاهد قططًا وكلابًا وعددًا من المتشردين ينام كلٌّ منهم بجوار عمود كونكريتي ضخم، عليه آثار بول وأوساخ... ابتعد عنه، ووصل ساحة الرصافي، شاهد التمثال وكأنه يدير ظهره للنهر ويحاول النزول من عليائه والهرب من مواجهة الناس، لا توجد سيَّارات في المكان المخصص لها لنقل الرُكَّاب من، وإلى الرصافي... تمشَّى في الشارع الذي يفصل بين البناية التجاريَّة العالية، وبناية المتحف البغدادي المغلق دائمًا، فيما البناية يغلب عليها سواد الحرق والدمار والإهمال. ثم وصل البقعة التي تفصل بين محلات صاغة الذهب على اليمين، ومحلات بيع الأحذية وصناعتها على اليسار، صعد الجسر، نظر إلى النهر المتواري وكأنه شقٌّ كبير في لوحة فنيّة ناقصة، شاهد النوارس وهي تهرب من أفعى عملاقة، غير مرئيّة، فحيحها ريحٌ حارة تلفح وجه البلاد، فيما سكن النهر، وقد بدا فيه صيَّادٌ وحيد، في زورقٍ رماديّ، كان يرتدي ملابس التتر، ويحمل سيفا ومَشعلاً، فيما يأخذ النهر تحته بالانحسار التدريجيّ، ليفصح عن الغرقى، والأسرار، وعُشَّاق بغداد الذين ماتوا كمدا !.

• • •

▪ مُلحق : مقاطع مما كتبته "رواء " في دفتر مذكراتها أيَّام المحنة

• الخميس، الثالث من نيسان عام ٢٠٠٣ م

خضِّبنَ أيديكُنَّ بالحنَّاء
واشددن شعوركنَّ
لا وقت..
الموتُ يطرقُ الأبواب
ليتحدَّث :
عن طائراتٍ
وحتوفٍ
ومصائرَ لا تؤدي
اعلمن
أن الذهبَ الباهتَ
والفضَّةَ المركونةَ
والعطرَ المتخاذلَ
أمامَ البارود

لا مأوىً لها
سوى أنين طفلٍ
يتهجَّى ارتباكَ أبويه
ونداءَ أمٍّ
يداها مشغولتان بالدُّعاء
تقدَّمْ أيُّها الأزيز
ها قد رسمتَ خرائطَ الرُّعب
وأخذتَ صباحَنا الجديدَ من يدِّهِ
لتُريه دخانًا
وقمرًا منكسرا
وأشجارًا تصبحُ بنادقَ
لا..
لا توقظنَ الأنوثة
واهرعن حفاة
رعاة البقر ينفثون نارهم
ويهربون
وأبناؤنا في تلافيف التاريخ
أبناؤنا

الذين لا شبيه لهم
سوى النخل
الذي ظلَّ مندهشًا
وهو يقفُ على مرمى بصر
من بابِ الله
....
خضِّبنَّ النهرَ بحُمرةِ الزينة
ليستقبلَ الدمَ مهللاً
ويفتحَ للموتِ بابًا جديدًا
الشقراواتُ ينتحبن
والحمراواتُ
يلطمنَّ الخدود
وأنتنَّ
تُمسِّدن ظهورَ الأضرحة
كفوفُكنَّ مُزيَّنات بالحنَّاء
والدم
يجري
من خجلِ أوَّلِ أنثى

حتى سيولَ المحنة
لا تخفن عواصف الأنباء
لا ترتبكن أمامَ الزعيق
ها هي الطائراتُ
وتلك الدباباتُ
وها نحن نسبح بين سماءين
الدخان
يتفَّتت
خوف بوح النجوم
والصمت
يتلفع بالجنون
والفرح العانس
يتنقَّل من مزغل سرِّي إلى آخر
تجرَّدنَّ من حلمٍ ناتِىء
ابتعِدنَّ عن النوافذ
لا تنتظرنَّ صهيلاً قادمًا
إغلقنَّ عيونكنَّ عن الجُثث
عن الراكضين إلى الحتوف

عن الخائفين
عن كلِّ ما يسيلُ في الشوارع
عن الضمادات السود
عن النبضاتِ المتناثرةِ في العشب
عن آلاتٍ معطوبةٍ في الأزقة
عن أكداسِ أسئلة
عن وطنٍ يتهدَّم
عن فراشاتٍ من حديد
تطاردُ رؤوسَنا
فيما نحن..
سنخفي النذورَ عنكنَّ
سنطلُّ من شرفاتٍ لن ترينها
فابقينَّ في المخابئ
وانتظرنَّ الصباح.

• الأربعاء ، السادس عشر من نيسان عام ٢٠٠٣ م

في المساءِ الذي لا يُؤدي إليكَ
الدُخَّانُ يقدِّم لي وردة
من رماد
الأزيزُ غِناء
يمرُّ على دمعتي
هازئًا
النجومُ
قذائف تذوي
وترسم موتًا قريبا
وصمتًا يلوِّح للراحلين
في المساءِ الذي
يرتدي خوذة
أقتنِي وحشة
وأركضُ خلفَ صباحٍ يتيمٍ
يُشيرُ إلى غُربة
لثغتْ جُثّةٌ

فاتها الأولياء

وحطَّ غرابٌ عليها

يا إلهَ العجائبِ

حدِّقْ بنا

ها هي الطائرات

تدكُّ صلاة

وتبقرُ بطنَ دعاء

ها هم الغرباءُ

بين نارٍ

ونار

بين همٍّ يلوكُ الرؤوس

وصمتٍ يوزَّع جهرا

يطوف النفوس

ها هي الريحُ

تكنس ما ادَّخرنا

وتفتح أعيننا

كي نرى الأنبياء

يجمّعُهُمْ مشهدٌ للخراب

... ها هم القادمون

بيننا يلعبون !

ونحن.. هنا

بينهم..

إخوةٌ.. غُرباءْ!!.

• **الجمعة، الثامن عشر من نيسان عام ٢٠٠٣ م**

.... والحربِ
إنَّ الإنسانَ لفي رعبِ
عفوك ربِّي
هذي الغربانُ على دربي
والليلُ تربَّع في قلبي
عفوك
مازلنا نستجدي وقتًا
نغزلُ من همٍّ كلماتْ
ونسافر بين الأنَّاتْ
نحو وجوهٍ
أو شهقاتْ
ما زلنا
نترقَّبُ جرحًا
ونداوي بالصبرِ الصدماتْ
وإذا اشتدَّتْ نارُ الحربِ
نسعى للصمتِ

عفوك ربِّي

عفوك ربِّي.

• **الجمعة، الخامس والعشرون من نيسان عام ٢٠٠٣ م**

لا تنظرْ للنجوم
لا تحدِّقْ بالقمر
ثمة طائرة تبصق عليك
ثمة دبابة تكبِّل يديك
وهناك جنديٌّ أميركي
يعطي وجهَهُ للجدار
وأنت..
بين ليلٍ موشومٍ بالموت
وضجيجٍ يأكلُ رأسك
لا تلمسْ شيئا
الأشياءُ ملوَّثة
والعناقيدُ
قتلتْ إخوةً لنا
هم فرحوا بالزهور
التي أحرقتنا
ولم تعطنا فرصة للندم

لا تظهر
لناقلاتهم
سيشتمونك بخُبث ضحكاتهم
هم غُزاة
وأنت وحدك
تقفُ على الشرفة
لم تعدْ تجيد الغناء
والسماءُ التي هتفتَ لها
أصبحتْ سوداءَ في الظهيرة
وقد اختفى في ركنٍ من بيتك
جنديٌّ أميركيّ
ارتشفَ قليلاً من خمرته المهربة
سَكِرَ
وتمشى مختالاً بين المنازل
وهي تطلقُ العويل
والدخان
ليأخذَ بكفِّ فتاة سمراء
وقفتْ بانتظارهِ قُربَ بابِ مدرعته
لغيب معها في جوفها

لا تسرْ باتجاههم
لا تنظر إليهم
نظاراتهم السود
تكشف مشاعرَكَ نحوهم
إنهم يكرهوننا جميعا
هم رعاةُ البقر
الذين ارتدوا قناعَ الحضارة
ها هم بيننا
سلاحهم موجَّهٌ نحو رؤوسنا
يضحكون
ونبكي.

• **الأربعاء، السابع من مارس عام ٢٠٠٣ م**

عَلِقَ صباحٌ بالدُّخانْ
وانفرطتْ من جمعِ الخوفِ
طفلةُ ليلٍ مفتوحْ
حملتْ قمرًا مذبوحْ
وشجيرةَ دمْ
ونهارًا مسفوحْ
وشظايا همْ
عَلقَ صباحٌ بالشيطانْ
فرَّ النومُ إلى عزلته
واستيقظ نبضٌ مجروحْ

.....

هاتي ما عندكِ يا حربُ
هاتي...
فالمحنةُ ربُّ
لم أحفل بأزيزٍ
شلَّ خُطى الوقت

لم آخذْ
غير سؤالٍ يتدلَّى من عين الصمت
هاتي...
لعبتنا بدأت
لم أعرفْ عنكِ سوى الموت
هاتي..
ولنتصافحْ
فالدنيا.. رعبُ
أعرفُكِ
جدًا..
يا حربُ !!.

❖ ❖ ❖

منذر عبد الحر

بغداد

في الثالث من آذار ٢٠١٠م

المؤلف في سطور

- مُنْذِر عبد الحَّر.
- أديب وشاعر وروائي عراقي.
- من مواليد البصرة – جنوب العراق في ١٣ \ ٥ \ ١٩٦١م.
- حاصل على بكالوريوس إعلام.
- بدأ الكتابة والنشر عام ١٩٧٩م.
- عضو المكتب التنفيذي للاتحاد العام للأدباء والكتاب في العراق، أمين الشؤون الثقافية من عام ١٩٩٢ حتى ٢٠٠٣م.
- شارك في مهرجانات أدبية كثيرة في العراق وخارجه، كما مثَّل العراق في عدد من المحافل الثقافية.
- عضو نقابة الصحفيين العراقيين.
- عمل في الصحافة منذ عام ١٩٨٤.
- له عدد من البرامج الثقافية الإذاعية والتلفزيونية.
- كتب عنه الكثير من النُقَّاد العرب والعراقيين.
- يعمل الآن مسئولاً للقسم الثقافي في جريدة الدستور ،

ومُعدًا لبرنامج " صوت وصدى" الشعري في قناة الرشيد الفضائية.

- البريد الإلكتروني: munther_alhur@yahoo.com

• الإصدارات :

– قلادة الأخطاء : مجموعة شعرية. دار الأمد للنشر، عام ١٩٩٢م

– تمرين في النسيان: مجموعة شعرية. مطبعة زياد، بغداد ١٩٩٧م وحصلت على جائزة الدولة للإبداع في الشعر في ذات العام.

– قرابين : مجموعة شعرية. دار الشؤون الثقافية العامة في بغداد عام ٢٠٠٠م.

– قرابين العش الذهبي : دار الزاهرة؛ ضمن إصدارات بيت الشعر الفلسطيني في رام الله، فلسطين المحتلة، عام ٢٠٠١م.

– شجن : مجموعة شعرية. عن دار الكرمل، عمّان، عام ٢٠٠١م.

– زائر الماء : رواية. الاتحاد العام للأدباء والكتّاب العرب في دمشق، عام ٢٠٠٥م.

– على حصان خشبي : مجموعة شعرية. دار الشؤون الثقافية العامة في بغداد، عام ٢٠١٠م.

– طُقُوس الإثم : رواية. شمس للنشر والإعلام، القاهرة، ٢٠١٢م.

– له في مجال المسرح مسرحيتان من المونودراما الأولى بعنوان "أعشاش" عام ١٩٩٥م، والثانية بعنوان "غرقى" عام ١٩٩٦م.

– له في مجال التلفزيون مسلسل من ثلاثين حلقة عُرض في قناة الحرية الفضائية.

– له عدد كبير من الدراسات والبحوث الخاصة بالأدب الحديث.

• إصدارات قيد النشر :

– أعمل الآن قرب مقبرة : مجموعة شعرية.

– جيل الثمانينات الشعري من جديد : كتاب يخص شعراء جيل الثمانينات في العراق.

– مقالات في الشعر: كتاب نقدي حول عدد من التجارب الشعرية.

– الشعر الفلسطيني الجديد.. قراءة وتقويم : كتاب نقدي عن الشعر الفلسطيني الراهن.

– قراءات في القصة والرواية : كتاب نقدي خاص بالقصة والرواية العراقية والعربية.

شمس للنشر والإعلام

رؤية جريدة في عالم النشر

في مسعى جاد لتقديم رؤية جديدة تسهم في تصحيح العديد من المسارات في مجال النشر،تأسست "مؤسسة شمس للنشر والإعلام" كخطوة على طريق إرساء أسس مشروع ثقافي متكامل يهدف إلى نشر الإبداع العربي في كافة التخصصات، وإثراء صناعة النشر، وتقديم إضافة حقيقية إلى مسيرة الكتاب العربي، وفق رؤى متوازنة تجمع ما بين طبيعة عملها كمؤسسة تجارية تتطلع إلى تحقيق الربح والانتشار، وبين تحقيق رسالتها الثقافية.

وتهدف "مؤسسة شمس للنشر والإعلام" إلى تحقيق عدد من الغايات، تتمثل في:

- إتاحة الثقافة الرفيعة للقارئ، وتلبية حاجاته من المعرفة.
- تفعيل حركة النشر، خاصة لشباب المؤلفين، ورعاية وتشجيع المبدعين، ودعم قدراتهم الفكرية والأدبية، والعمل على إبرازها.
- الإسهام الفعال في نشر الإبداع العربي، من خلال سياسات ترويج وتوزيع تتلاءم ومقتضيات العصر.
- حماية الحقوق الفكرية والمادية للكتّاب، وإعادة صياغة أسس التعامل المادي مع المؤلفين وفق قواعد أكثر إنصافاً.

- التعريف بالكاتب والكتاب إعلامياً وجماهيرياً، ومد جسور التواصل بين المبدع والمتلقي.
- الوصول بالإبداع العربي إلى القارئ غير العربي، من خلال ترجمة الإصدارات العربية المتميزة إلى لغات مختلفة، والعمل على خلق آفاق عالمية لنشرها بالتعاون مع دور نشر احترافية.
- إثراء الحياة الثقافية بالأنشطة والندوات والفعاليات، من خلال رؤى تنظيمية وترويجية تضمن نجاحها والمشاركة الفاعلة فيها.
- توثيق الصلات بين دور النشر المحلية والعربية والدولية، وكذلك بين الكتاب والمثقفين العرب، والتواصل الفاعل مع المهتمين على اختلاف توجهاتهم، وفق صيغ تعاون إيجابية.

ويرتكز عمل المؤسسة على منهاج "احترام الكاتب والكتاب" مادياً وأدبياً ومعنوياً، وفق عدة معايير تقوم على الالتزام التام بأخلاقيات مهنة النشر. وتسعى لتقديم رؤية جديدة لصناعة الكتاب تشمل الدقة في انتقاء المحتوى، والجودة في إخراجه وتصميمه وتنفيذه وطباعته، والاهتمام بنشره وترويجه إعلامياً ودعائياً، بما يضمن له مكاناً بارزاً في مكتبة القارئ.

شمس للنشر والإعلام

www.shams-group.net

(+2) 02 27270004 / (+2) 01288890065

شمس
للنشر والإعلام

(+2) 02 27270004 / (+2) 01288890065
www.shams-group.net